الفيصل

- وادي الرمة بين التاريخ والجغرافيا
- الداروينية المؤمنة
- قلعة دمشق معلم تاريخي

مجلة ثقافية شهرية-رجب-شعبان ١٤٣٠هـ/ يوليو-أغسطس ٢٠٠٩م

٣٩
٣٩

الساعة

التي حيرت العلماء والفلاسفة





www.alfaisal-mag.com



المحتويات

إدارة التحرير

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

نائب رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

هيئة التحرير

حسين حسن حسين

محمد بن حمد الخرابة

الشيخ علي صالح

سعد علي الجعفري

الإخراج الفني

الوليد إبراهيم دينار

المراسلات للتحرير والإدارة

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي

١٥٠ ريالا سعوديا للأفراد، ٢٥٠ ريالا سعوديا للمؤسسات أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥، ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية

١٤/٢٤٥٠

ردمد ٠٤١١-٨٥٢٠

الناشر

دار الفيصل الثقافية



عرف الإنسان التوقيت بالفصول والشهور في شؤون حياته منذ آلاف السنين، ثم في العصر الحديث عرف التوقيت بالساعات والدقائق والثواني، لكن هذه الساعة ليست هي الوحيدة، فهناك الساعة البيولوجية التي تحملها الكائنات الحية في خلاياها وأنسجتها، التي لولاها لانقرضت صور كثيرة من الحياة، ولحلّت الفوضى في هذا الكوكب، فما هذه الساعة؟ وما المهام التي تؤديها؟ وأين تقع في جسم الإنسان؟

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
  في حال إرسال قصة مترجمة يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر، ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض تشمل: عنوانه، واسم مؤلفه، ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، خصوصًا القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . الإمارات ١٠ دراهم . قطر ١٠ ريالات . البحرين دينار واحد . عُمان ريال واحد . الأردن ٧٥٠ فلساً . اليمن ١٠٠ ريال . مصر ٤ جنيهات . السودان ١,٥ جنيه . المغرب ١٠ دراهم . تونس ٢٥٠ , ١دينار . الجزائر ٨٠ دينارًا . العراق ٨٠٠ فلس . سورية ٤٥ ليرة . ليبيا ٨٠٠ درهم . موريتانيا ١٠٠ أوقية . الصومال ٢٠٠٠ شلن . جيبوتي ١٥٠ فرنكاً . لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية . الباكستان ٢٠ روبية . المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية . الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع . هاتف ٤٨٧١٤١٤(٠١) . فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر . مؤسسة توزيع الأهرام . شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ . فاكس ٣٣٩١٠٩٦ . ٠٠٢٠٢، سورية . المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ٥٣٠١ هاتف ٨٤٢٨٢١٢ . فاكس ٢١٢٢٥٣٢ . ١١ . ٠٠٩٦٣، تونس . الشركة التونسية للصحافة . ٣ نهج المغرب . ص.ب ٧١٩ . فاكس ٧١٤٠٠٣٢٣/ هاتف ٩٣٢٢٤٩ . ٧١ . ٠٠٢١٦، قطر . دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع . ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ . فاكس ٤٦٦١٨٦٥ . ٠٠٩٧٤، الأردن . شركة وكالة التوزيع الأردنية . ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ . فاكس ٠٠٩٦٢.٦.٤٦٣٥١٥٢، البحرين . مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ . فاكس ٠٠٩٧٣.٥٣١٢٨١، الإمارات العربية المتحدة . مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٤٩٣٥٦٦٣ . فاكس ٠٠٩٧١.٤.٢٦٦٩٨٢٧، الكويت . شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ . فاكس ٠٠٩٦٥.٢٤١٧٨٠٩، المغرب . الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٠٠٢١٢.٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية . القائد للنشر والتوزيع هاتف: ٠٠٩٦٧.٣.٢٠١٩٠١/٢ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧



عندما تتحدث الصورة

لفت انتباهي في الأعداد الأخيرة من المجلة الموضوع المصوّر الذي تنشرونه في الغلاف، والهدية الجميلة التي تتحفون بها القرّاء.

إن هذا الموضوع يمثّل إضافةً؛ لأنه يترك الصور هي التي تتحدث، مع نص مفتاحي يعين على قراءة الصور، ومعرفة ما وراءها. آمل أن تركّزوا في قضايا البيئة، والقضايا الإنسانية؛ لأنها هي الملحة في وقتنا هذا، وأدعو الله أن يوفقكم إلى ما فيه الخير.

د. ميسر علي خليل

الخرطوم - السودان

التحرير:

نشكر لك المتابعة، ونأمل أن يكون هذا الرأي هو الغالب لدى الإخوة القرّاء، وسوف نهتم بالقضايا التي أشرت إليها، ولعلك تلحظ ذلك في الأعداد الماضية، مع تقديرنا لاهتمامك.

عدد «دايت»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

هأنذا الكسول أكتب إليكم بعد لأي وتسويف!!. منذ سنة وأكثر بدأت أقتني الفيصل باستمرار؛ إذ كنتُ توّاقاً إلى إعادة علاقتي بها التي استمرت منذ نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات حتى بعد المنتصف بقليل؛ إذ أدركتنا سنوات الكدّ والعمل، ورياح اللهاث الأولى، ولا نزال!!. لكن ربما لأننا تيقّنا أن العمر ينتهي، ولا تنتهي الأعمال، فلا بد من الرجوع إلى المتع الحسية الراقية، والهوايات النخبوية الجميلة، فلا أجمل من حياة التأمل في كتاب ماتع وشائق، أو مجلة محكمة كمجلتي الأثيرة (الفيصل)، التي حافظت على نسقها وهويتها على الرغم من رياح التغيير التي هبّت على أشرعتها الأجمل.

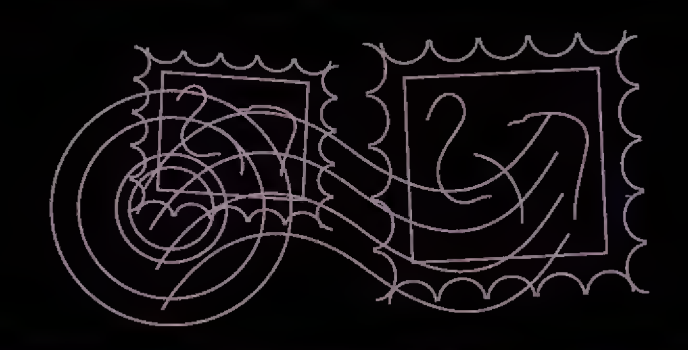
بالطبع مازلت محتفظاً بتلك الأعداد العتيقة التي أعدّها كنزاً أورّثه الأبناء الآن على رغم بعدهم عن القراءة الجادة الرصينة، ربما لصغر سنهم الآن، وكثرة الملهيات فيما حولهم، ولكنها تبقى واسطة العقد في مكتبتي المتواضعة.

في العدد (٣٨٢)، لا أدري هل واكبتم موضة الدايت والريجيم القاسي لمجلتنا العزيزة بقلة الأوراق، أو ماذا؟!. فعلى رغم دسامة الموضوعات، وأرى أن الصور الخلفية - بحكم حبي التصوير - أكثر من رائعة. يبقى حجم المجلة، وطريقة التنضيد (التجليد)، فأرى أن تتم إعادة النظر فيها؛ لأنها تذكّرني ببعض مجلات الأندية الأدبية الخواء. كما أرى أنه لا يمنع أخذ بعض سبق ومميزات طريقة إعداد الأعداد الأولى مادامت جميلة؛ كوضع ببلوجرافيا مصوّرة ومختصرة لكتّاب كل عدد كما كان في السابق. كما آمل أيضاً التخفيف ما أمكن من غلواء النخبوية في الموضوعات المنشورة؛ لتنزل إلى القرّاء بمختلف درجاتهم. وأخيراً، وليس آخراً، الاهتمام بالتوزيع.

كلمات أكبر من تساؤلاتي، إلاّ أن هذا لا يعفيني من إسداء المعروف إلى أهله بالشكر والثناء والملاحظة والاقتراح وإن قسا. وتقبلوا أطيب التحيات.

سليمان الهويريني

المملكة العربية السعودية - الرياض ١١٦٧٥ - ص. ب ١٠٢٤٨٠



التحرير:

نشكر لك متابعتك. ومن الجميل أن تسوق رأيك في هذا الأسلوب الساخر، ويبدو أنك كنت تتوقّع أن تجد المجلة التي اعتدتها منذ زمن في حجمها وشكلها. ولكن كما تعلم التطور سنة الحياة، وهناك ظروف تفرض مثل هذا التغيير الذي بدأ سلساً لكثير من القرّاء المتابعين. لك الشكر، ونأمل تواصلك الدائم.

لا تقدُّم بلا جودة

لقد استمتعت كثيراً بقراءة موضوع «الجودة سبيل تنافس المتنافسين»، وأكثر ما أعجبني فيه هو الربط بين الماضي والحاضر بأسلوب علمي سلس.

إن العجائب التي أبهرت العالم، وظلّت صامدةً تتحدى الزمن ما كان لها أن تدوم لولا مستوى الدقة الذي تأسّست عليه، وإذا أردنا تقدماً ولحاقاً بشعوب الأرض فما علينا إلا أن نلتزم معايير الجودة في كل عمل، خصوصاً أن نبينا الكريم - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى ذلك بقوله: «إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»، صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم.

وفي عالم اليوم لم تعُدْ أنصاف الحلول مقبولة، ولكي يكون لدينا الحل الجذري علينا بالجودة الفائقة.

آمل الاهتمام بمثل هذا الموضوع الذي يفسّر لنا كيف تتقدم الشعوب، وأسباب التخلف.

وفّقكم الله..

طارق محمد علي جاسر

٤٣ شارع صفية زغلول الإسكندرية - مصر

التحرير:

نشكر لك الاهتمام، ونأمل أن تجد ما تريد في كل عدد من أعداد المجلة. وهذا الربط بين الماضي والحاضر تحرص عليه المجلة من خلال عدة مقالات في كل عدد بقدر الإمكان، ونتمنى أن نتلقى مشاركة لك في هذا الإطار.

عدد متميّز

طالعت العدد الأخير من مجلة «الفيصل العلمية»، وأعجبني كثيراً مواكبته الأحداث، وتضمّنه موضوعاً عن «إنفلونزا الطيور»، كما لفت انتباهي استكتاب عدد من المختصّين في المجالات العلمية المختلفة ممّن يمثلون إضافةً حقيقيةً.

آمل أن تستمر المجلة العلمية على هذا المستوى الرفيع، وكلّ التوفيق والسداد.

د. صلاح علي محجوب

الرياض - السعودية

التحرير:

نأمل أن تجد المجلة العلمية اهتمام المختصّين أمثالك، وكذلك تفاعلهم معها، ومحاولة المشاركة بالمقالات والآراء التي - بلا شكّ - تحقق المزيد من التطور والسير في الاتجاه السليم، ولك تقديرنا.



استطلاع

وادي الرمة

بين التاريخ والجغرافيا

تركي بن إبراهيم القهيدان
بريدة - السعودية



هناك فرق بين (الرُّمَة)، و(الرِّمَة). ووادي الرُّمَة كان يصبّ في العراق (بطول ١٠٩٦ كم). لكن الرمال قطعته إلى ثلاثة أودية، ولم يجتز أرض القَصيم (بطول ٥٣٩كم) منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم.

تنتشر على أرض القَصِيم مجموعة كبيرة من الأودية والشعاب، في مقدمتها وَادِي الرُّمَّة بروافده الكثيرة، الذي يعدّ من أكبر أودية الجزيرة العربية إن لم يكن أكبرها على الإطلاق. ويُعَدُّ وَادِي الرُّمَّة[1] أهم ظاهرة جيومورفولوجية في منطقة القَصِيم، ومن أهم أودية الجزيرة العربية وأطولها، كما أنه يعدّ من الأودية الضامرة؛ فهو ظاهرة جيومورفولوجية تعكس أوضاعاً مناخية مطيرة سابقة. ويشكّل مع روافده التي تربو على الثلاثمئة أكبر شبكة من الأودية الجافة التي تترع بالمياه بعد سقوط الأمطار الفجائية الغزيرة، لكن سرعان ما تتبخّر مياهها ويتسرّب قسم منها إلى أعماق الأرض لتعود جافة في معظم أيام السنة[2].

وادي الرُّمة خلال الفترات المطيرة

في العصور القديمة، كان نهراً يبدأ من مشارف المدينة ويصبّ في شط العرب بالعراق في الخليج العربي. ولقد تتبّعت مجرى الوادي من المنبع (الجبل الأبيض) حتى مصبّه (في الوقت الحاضر) شرق البندرية، فوجدته يبلغ نحو ٥٣٩كم، ثم يختفي تحت رمال الثويرات لمسافة ٨٢كم حتى الطراق[3].



وَادِي الرُّمَّة ماراً بين أكبر مُدُن القَصِيم (بُرَيْدَة وعُنَيْزَة)

ثم يظهر باسم الأجردي لمسافة ٣٠كم تقريباً من الطراق إلى آبار البريكة، ثم يختفي تحت رمال الدَّهْنَاء بطول ٢٥كم من آبار البريكة حتى بداية وادي الباطن عند بئر الثّمامي، ثم يظهر باسم وادي الباطن لمسافة ٤٢٠كم تقريباً حتى يصبّ في شط العرب، فيصبح طول المجرى ١٠٩٦كم تقريباً.

وبعد البحث قمتُ بتحديد مجرى نهر الرمة تحت الكثبان الرملية في صحراء الدَّهْنَاء من خلال الخرائط والأجهزة الحديثة. أما طريق الحاج، فقد اهتديتُ إليه من واقع النصوص القديمة التي وصفته وصفاً واضحاً لا غبار عليه، كما تبيّن لي أن الوادي يحاذي طريق الحاج. وعندما عزمتُ على قطع صحراء الدَّهْنَاء متتبّعاً طريق الحاج (محاذياً مجرى الوادي) استعرضتُ ما تمكنت من جمعه من النصوص القديمة من المراجع المتوافرة لديّ، وبعد أن رسمتُ صورة في ذهني قارنتُ ما قاله البلدانيون والمؤرخون القدماء بواقع الأرض، فوجدتُها تكاد تنطبق على تضاريس الأرض في وقتنا الحالي. كما أن قياس الإمام أبي القاسم الحَرْبي (١٩٨هـ - ٢٨٥هـ) - صاحب كتاب (المَنَاسِك) - لصحراء الدَّهْنَاء قريب أيضاً من قياس الباحث على الطبيعة. كما أن أحجام الكثبان الرملية لم تتغيّر كثيراً منذ أكثر من ألف سنة!!. ومما يؤكد ذلك ما عثرت عليه من أميال ظاهرة في صحراء الدَّهْنَاء حددتُها في كتابي الموسوم بـ(القَصِيم: آثار وحضارة) (الكتاب الثالث)، فارجع إلى الكلام هناك إن أردت، واقرأ ما قلتُه من كلام في صفحة ٨١٧؛ فوجودها حتى وقتنا الحاضر يدلّ على أن المنطقة لم تشهد ترسيباً هوائياً أو زحف رمال ملحوظاً منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن!!. وقد أعلنتُ عن هذا الكشف في صحيفة الرياض بتاريخ ١٤٢١/١١/٨هـ تحت عنوان: (الكشف عن موقع الينسوعة والمَجَازَة وأعلام طريق



سد وَادِي الرُّمَّة

الحاج في القَصِيم). وليس لديّ أدنى شك فيما ذكرتُ آنفاً، خصوصاً أن الدراسات الحديثة تؤكد ذلك. كما أشير إلى أن د. أسامة الباز سبق أن نشر صوراً جوية توضح المجرى بشكلٍ واضحٍ لا غبار عليه. وقد يعجب بعض الناس ويسأل: أين هذا النهر الذي يصبّ في العراق وأرسب هذه الرواسب؟ فوَادِي الرُّمَّة وادٍ جافّ تطول مدة جفافه إلى عشرات السنين. ونبيّن هنا أن هذا ليس اكتشافاً جغرافياً حديثاً اكتشفه العلماء[٤]؛ فجريانه تصديقاً لما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وفيما يأتي عرض لبعض الأدلة والبراهين التي تثبت أن وَادِي الرُّمَّة كان يصبّ في العراق:

- وجود مجرى متّسع في وادي الباطن قرب بئر الثّمامي شرق الدّهْنَاء؛ إذ لا يوجد تفسير لهذا المجرى الواسع والطويل سوى أحد احتمالين: الأول امتداد لوادي الرمة، وهذا الاحتمال الأقوى في نظر الدَّارِس، والثاني أن منابعه صحراء الدّهْنَاء، وهذا مستبعد الحدوث؛ إذ لا يمكن أن يتكوّن الوادي مباشرةً بعد كثبان رملية، بل من يتفحّص وادي الرمة فسيلاحظ أن روافده الكبيرة تختفي بمجرد دخول الوادي إلى المنطقة الرسوبية شرق الرس.

- على امتداد المجرى تحت الرمال شاهد الباحث في أثناء زياراته الميدانية مناطق منخفضة بين الرمال يطلق عليها سكان المنطقة اسم (قاع). تربتها طينية أقرب ما تكون رواسب لوادي الرمة في الزمن القديم.

- جريانه تصديقاً لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلا يَجِدُ أَحَداً يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجاً وَأَنْهَاراً»[٥].

- مما سبق يتبيّن لنا أن وادي الرمة كان نهراً يجري طوال العام، ولكل نهر مصبّ، لكن السؤال هنا: أين سيصبّ هذا النهر؟ الأنهار عادةً تصبّ في البحار أو المحيطات أو بحيرات عظمى، ولأن تضاريس سطح أرض جزيرة العرب تنحدر نحو الشمال الشرقي، فإن مصبّه الطبيعي في العراق، حتى وإن حجزته كثبان رملية فإن المياه ستتجمع على شكل بحيرات صغيرة ما تلبث حتى تنفجر، فيتشكّل مجرى للوادي باتجاه المنخفض الذي يليه. وقد رأيتُ في سنة ١٤٠٢هـ كيف فتح الرمة مجرى له في الكثبان الرملية بين قاع بولان والثويرات، حتى إنه أزال الطريق المزفت الرابض في مجراه بين البريكة والصريف، كما فتح له مجرى في الثويرات (نحو ثلاثة عروق رملية)، مع أن جريانه بضعة أيام، فيكف بالحال إذا كان نهراً يجري طوال العام؟!. ونخرج مما سبق أنه من الصعب أن يجتاز الرمة كثبان الثويرات أو الدهناء إذا كان وادياً جريانه بضعة أيام، لكن يستطيع اجتيازها إذا كان نهراً يجري طوال العام كنهر النيل في مصر.

- إنّ الاتجاه العام لأودية: الرُّمَّة، والأجردي، والباطن، هو اتجاه انحدار السطح في الجزيرة العربية نحو الشمال

الشرقي نفسه: إذ يبلغ ارتفاع وادي الرمة في مصبّه غرب الثويرات وشرق البندرية (٥٦٠م). أما ارتفاع بداية وادي الأجردي شرق الثويرات فهو ٤٨١م، وارتفاع مصبّه في البريكة غرب الدّهْنَاء هو ٤٥٦م، وارتفاع بداية وادي الباطن شرق الدّهْنَاء جنوب بئر الثّمامي هو ٤٠٨م.

- توضح صور الأقمار الصناعية وجود اتصال بين: الرمة، والأجردي، والباطن. ويمكن لأيّ باحث متمكّن أن يستنتج ذلك من خلال تصفحه Google Earth في الإنترنت.

وادي الرُّمة في العصر الإسلامي

تبيّن للباحث أن حدود حوض وَادِي الرُّمَة ونهايته لم تتغيّر منذ صدر الإسلام حتى وقتنا الحالي كما نرى من المصادر الآتية: قال السمهودي (٨٩١هـ): (الرمة) بالضم وتكسر وتخفف وتثقل: (وادٍ) عظيم بنجد بين أسفلها وأعلاها سبع (ليالي) من حرة فدك إلى القصيم، وبطن الرمة ببلاد غطفان في طرق فيد للمدينة[٦]. قُلْتُ: فَدَكُ في الزمن القديم هي الْحَائِط في الوقت الحالي، وهي منابع وَادِي الرُّمَة الْيَوْمَ، وهي بلدة تابعة لمنطقة حائل، وتقع جنوب غرب حائل على بعد ٢١٠كم. كما تقع شمال شرق المدينة وتبعد عنها ١٩٣كم، وكان رئيسهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم اليهودي يُوشع بن نون. وقد صَالَحَ أَهْلَهَا رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ على نصف الأرض بتربتها، وصار خالصاً له صلى الله عليه وسلم، ولم يزل أهلها بها حتى أجلَى عمر رضي الله عنه اليهود[٧]. أما فيد، فهي بلدة تابعة لمنطقة حائل، وتقع جنوب شرق حائل على بعد ٩٥كم. وأما بطن الرمة المعنيّ، فهو منطقة البعائث التابعة لحائل. والمسافة بين القريتين على ضفاف وادي الرمة قرب عنيزة وبين الحائط (فدك) ٣٥٠كم بخط مستقيم. وهذا القياس يكاد يتطابق مع قياس المسافة بـ(سبع ليال). ومما يؤكد ذلك ما أورده المقدسي حين حدّد المسافة من مصر إلى مَدْيَن بقوله: وبينه وبينها ثماني ليالٍ، قال نحواً من البصرة إلى الكوفة[٨]. قُلْتُ: إذا كانت المسافة من البصرة إلى الكوفة ٣٧٥كم، فهذا يعني أن مسافة اليوم الواحد ٤٧كم بخط مستقيم، وتزيد على تلك المسافة على واقع الأرض.

كما قال الفَيْروزَابَادي (٧٢٩ - ٨١٧هـ) عن الرُّمَّة: قاعٌ عظيمٌ بنَجْد، تَنْصَبُّ فيه أَوْدِيَةٌ[٩]. وفي لسان العرب لابن منظور(٦٣٠ - ٧١١هـ): سمّي حِجازاً؛ لأن الحرَارَ حَجَزَتْ بينه وبين عالية نجد. قال: وقال ابن السكيت: ما ارتفع عن بطن الرُّمَّة فهو نَجْدٌ، قال: والرُّمَّة واد معلوم، قال: وهو نَجد إلى ثنايا ذات عِرْق، قال: وما احْتَزَمَتْ به الحِرار[١٠].

قُلْتُ: ذاتُ عرقٍ ميقات أهل العراق، وهو يقع شمال شرق مكة على بعد تسعين كيلاً أو نحوها، كما يقع شمال الطائف ببُعد المسافة نفسها عن مكة المكرمة. ويُعَدُّ ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) من أشهر الجغرافيين الذين عُنوا بالمعالم الجغرافية في الجزيرة العربية، مع أنه لم يحجّ، ولم يأتِ جزيرة العرب، وكل ما ذكره عن المعالم الشريفة نقله من كتب الجغرافيين قبله. وقد حظي وَادِي الرُّمَّة بنصيب وافر من المعلومات، فيذكر عنه: قال الأصمعي بعد ذكره الرُّمة: واد، وأسافل الرمة تنتهي إلى القصيم، وهو رمل لبني عبس[١١]. كما أورد ياقوت في المجلد الثاني: ونقل لنا: أصل الرمة واد يصبّ في الدهناء، وقد ذكر في الدهناء. وقال العاصمي: سمعت أبا المكارم الأعرابي وابن الأعرابي يقولان: الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم، تنزل أعاليها بنو كلاب، ثم تنحدر فتنزل عبس وغيرهم من غطفان، ثم تنحدر فتنزل بنو أسد. وفي كتاب نصر: الرُّمَة، بتخفيف الميم: واد يمرُّ بين أبانين يجيءُ من المغرب أكبر واد بنجد يجيءُ من الغور والحجاز، أعلاه

> الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم، تنزل أعاليها بنو كلاب، ثم تنحدر فتنزل عبس وغيرهم من غطفان، ثم تنحدر فتنزل بنو أسد

يجري وَادِي الرُّمة عادةً كل قرن من الزمان أكثر من ثلاث مرات، وقد جرى خلال القرنين الماضيين عدة مرات

لأهل المدينة وبني سُلَيْم، ووسطه لبني كلاب وغطفان، وأسفله لبني أسد وعبس، ثم ينقطع في رمل العيون، ولا يكثر سيله حتى يمده الجريب وادٍ لكلاب. وبين أسفل الرمة وأعلاها سبع ليالٍ من الحرة حرة فدَك إلى القصيم وحرة النار. قال: والرمة تجيءُ من الغور والحجاز، فأعلى الرمة لأهل المدينة وبني سليم، ووسطها لبني كلاب وغطفان، وأسفلها لبني أسد وعبس، ثم ينقطع في الرمل رمل العيون[١٢].

قُلْتُ: ما نقله لنا من أن الرُّمَةَ يصب في الدَّهْنَاء، يظهر أن المقصود الثويرات. أما وادي الجريب في الزمن القديم، فهو وادي الجرير في الوقت الحالي، ويُعَدُّ أكبر روافد وَادِي الرُّمَّة؛ إذ يبلغ طوله ٢٤٠كم، منها ١١٥كم في منطقة الرياض، و١٢٥كم في منطقة القَصِيم[١٣]. أما منابعه، فهي من جنوب غرب عفيف بنحو ٧٠كم. كما نلاحظ أنه ذكر أن وادي الرمة (يجيءُ من الغور)؛ فالغور منطقة منخفضة، فكيف يجري الوادي من المنخفض (الغور) إلى المرتفع (عالية نجد)؟! ويقول ياقوت: والذي قرأته في كتاب الأصمعي في جزيرة العرب رواية ابن دريد عن عبد الرحمن بن عمة وقد ذكر نجداً فقال: والرمة تجيء من الغور والحجاز[١٤]. يقول الشيخ العبودي: المتبادر للذهن أن الغور هو مكان منخفض لا يمكن أن تأتي منه السيول إلى نجد التي هي مكان مرتفع، والظاهر أن الذين قالوا تلك العبارة - إن كانوا قالوها ولم تكن محرفة - إنما أرادوا أن المياه التي تنزل على الرأس الأبيض، وهو جبل في قمة ارتفاع الجزيرة العربية في المنطقة التي تقع إلى الشرق من خيبر، تفترق، فيذهب بعضها إلى الغور، وبعضها الآخر إلى الشرق، مكوناً بداية وادي الرمة[١٥]. قُلْتُ: هذا تعليل معقول ومقبول، لكن لا نجزم به؛ فمن المعروف أن وجه الأرض لا يستقر على صورة واحدة، بل إنه دائم التشكّل؛ فقد تتحول الجبال إلى هضاب، وقد تؤثر الزلازل في السطح فترفع بعض الأجزاء من الأرض، كانت منخفضة أو مغمورة بالماء، وقد يحدث العكس، وقد ترفع البراكين أجزاء منخفضة، ونشاهد سطح منطقة القَصِيم يتغيّر شكله من وقت إلى آخر بفعل عوامل الرياح والسيول، ولعل أبرز مثال على ذلك عندما جرفت سيول وادي الرمة الرمال التي زحفت على مكان (العَوْسَجة)، وهذا اسمها في صدر الإسلام، أما الْيَوْمَ فَتُعْرَفُ بالبُرَيْكَة أو (القُصَيْر)، وهي تقع شمال الرُّبَيْعِيَّة بالقَصِيم على بعد ٦,٧كم، وقد ظهرت جدران بركة كانت مطمورة بالأتربة في طريق الحاج البصري.

وجاء في (تهذيب اللغة) للأزهري: عن الأصمعي قال: سمعت الأعراب يقولون: إذا خلفت عجلزاً مصعداً - وعجلز فوق القريتين - فقد أنجدت. قال: وأخبرني الحراني عن ابن السكيت عن الأصمعي قال: ما ارتفع عن بطن الرُّمَّة - والرمة: وادٍ معلوم - فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق[١٦].

قُلْتُ: نُقل عن الأصمعي (توفي سنة ٢١٦هـ) كثير من أوصاف جزيرة العرب. أما (القريتين)، فهي تقع على ضفاف وَادِي الرُّمَّة قرب مدينة عُنَيْزة. وأما مُتَعَشَّى عَجْلَز، فقد حدد الشايع أنه يقع جنوب وادي الرُّمة، وهو ما يسمى



وادي الرُّمَّة في أثناء اجتياحه مزارع عُنَيْزة

الآن (البُرَيْكَة)، ويقع في وسط مزارع تسمى بهذا الاسم، وموقعها في نهاية رمال (غميس عُنَيْزة) من جهة الغرب[١٧].

كما قدّم لنا الهجري صاحب كتاب (التعليقات والنوادر) معلومات قيمة حين قال: وتنتهي الرُّمَّةُ عند ايْرمَي الكلبْة من شقيق النَّباح، والشقيقُ رملٌ، وأول الرمل جَبَل الحاضر من رمل الشّقيق، وأقصاه ميلُ الأمُل، وهذا من جبال رَمْلِ الدهناء، وبين هذين الجبلين خمسةُ أجبُلٍ، بين كل جبلينِ ميلان أو أقل[١٨].

قُـلْـتُ: الميل العربي (٢٠٠٠م) حسب قياس جلّ الباحثين. أما كاتب هذه الأسطر، فقد تبيّن له - حسب دراسته على واقع الأرض - أن الميل العربي يعادل ٢,٢كم أو نحوها. أما (النُّبَاج)، فَتُعْرَفُ الْيَوْمَ بمحافظة (العَين) في الأَسْيَاح، وهي تقع شمال شرق بُرَيْدَة على بعد ٥٤كم

(في خط مستقيم). ومما ذكرتُ آنفاً من المصادر السابقة يتبيّن لنا أن حدود حوض وَادي الرُّمَة ونهايته - شرق البندرية في الأسياح حيث تحجزها رمال الثويرات - لم تتغيّر منذ صدر الإسلام حتى وقتنا الحالي. وقد تحدثتُ بما فيه الكفاية في كتابي الموسوم بـ(أرض القَصِيم) في مبحث خاصّ عن وَادِي الرُّمَة، فارجع إلى الكلام هناك إن أردت، واقرأ ما قلتُه من كلام في صفحة (٧٨).

المدلول الاصطلاحي

الرُّمّة: (بضم الأول، وتثقيل الثاني؛ أي: بتشديد الميم، أو تخفيفها؛ أي: حذفها) قِطْعة من الحَبْل. وهذا الوصف - في نظري - ينطبق على وَادِي الرُّمَّة في الوقت الحالي؛ فهو جزء من نهر كان يصبّ في العراق في الزمن المطير، لكن العوامل المناخية في حقب الجاف عملت على طمر الوادي برواسب الرياح؛ إذ زحفت عليه رمال الثويرات والدَّهْنَاء (قبل الإسلام)، فقطعته إلى ثلاثة أودية منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وقتنا الحالي، وهي: الأجردي، والباطن، والرُّمَّة.

لكن (الرُّمّة) يُكتب كما يُنطق في بعض وسائل الإعلام: الرِّمَّة (بالْكَسْر). وهذا في نظري خطأ، وصوابه (الرُّمَة) أو (الرُّمَّة). أما الرِّمَّة فهي: مَا بَلِي من الْعِظَام كما نراه في المصادر المختلفة، قال جل جلاله: ﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس ٧٨). وفي أيسر التفاسير: جَاءَ أُبَيّ بنُ خَلَف إِلَى رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ وَفِي يَدِه عَظْمٌ رَمِيمٌ، أَخَذَ يَفُتُّه وَيَذْرُوهُ بِيَدَيْه، وَقَالَ للرَّسُول صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ: أَتَزْعُمُ أَنَّ الله يَبْعَثُ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ: (نَعَم، يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّار)[١٩]. والرُّمَّة كما يذكر الرازي (ت ٧٢١هـ): الرُّمَّة بالضم قطْعة من الحَبْل باليَة، والجمع رُمَم ورِمام، وبها سُمّي ذُو الرُّمَّة. ومنه قولهم: دَفَعَ إليه الشَّيْءَ برُمَّته، وأَصْلُه أَنّ رَجُلاً دَفَع إلى رجل بَعيراً بحَبْل في عُنُقه، فقيل ذلك لكُلّ مَن دَفَع شيئاً بجُمْلَته. والرِّمَّة بالكسر: العِظَام البالية[٢٠]. ويقول ياقوت: الرُّمة بضم أوله،

حاول أهل عُنَيْزة تحويل فيضان وادي الرمة عن مزارعهم في الزغبية؛ لأنه يتلفها تلفاً بالغاً، فعملوا في سنة ١٢٤٥هـ سداً ما لبث أن تهدّم

وتشديد ثانيه وقد يخفف. ولفظ الأصمعي في كتابه: ما ارتفع من بطن الرمة يخفف ويثقل. هذا لفظه، والرمة ما بقي من الحبل بعد تقطيعه. وقال ابن دريد: الرمة قاع عظيم بنجد تنصبّ فيه أودية، ويقال بالتخفيف[٢١]. كما ذكر الفراهيدي (١٠٠-١٧٠هـ): الرُّمة في أشهر أول معجمات اللغة العربية (العين): الرُّمة: القِطْعةُ من الحَبْل، وبها سُمِّي ذو الرّمّة. ودفعت الدّابّة إليك برُمَّته؛ أي: ببقيّة حبل على عُنُقه.. والرِّمّة: العظام البالية[٢٢]. وفي المحيط في اللغة: الرُّمَّةُ: القِطْعَةُ من الحَبْل، وبه سُمِّي ذا الرُّمَّة. ودَفَعْتُه إليه برُمَّته: أي ببَقِيَّة حَبْل على عُنُقه.. والرُّمَّةُ: قَاعٌ عَظِيْمٌ بنَجْد تَنْصَبُّ فيه أوْدِيَةٌ[٢٣]. ويُفَرِّق ابن دريد بين الرُّمَة والرِّمَّة حين قال: الرُّمَة: القطعة من الحبل، والرِّمَّة: ما رمَّ من العِظام[٢٤]. جاء في الصحاح في اللغة أيضاً: الرُّمَّةُ: قطعةٌ من الحبل باليةٌ.. والرِّمَّةُ بالكسر: العظام البالية[٢٥]. وفي (المغرب): الرِّمَّةُ بِالْكَسْرِ مَا بَلِي مِنَ الْعِظَامِ، وَمِنْهَا الْحَدِيثُ: (نَهَى عَن الاستنْجَاء بِالرَّوْث وَالرِّمَّة)[٢٦].

كَذَلِكَ جاء في تاج العروس للزَّبيدي: (والرُّمة بالضم: قطعة من حبل) بالية (ويكسر)، واقتصر الجوهري على الضم، والجمع: رمم ورمام، ومنه قول علي رضي الله عنه يذمّ الدنيا وأسبابها: رمام؛ أي: بالية.. (و) الرمة (قاع عظيم بنجد تنصبّ فيه) مياه (أودية، وقد تخفف ميمه)[٢٧].

كما قال الفَيْروزَآبَادي: الرُّمَّةُ، بالضم: قِطْعَةٌ من حَبْلٍ، ويُكْسَرُ، وبه سُمِّي ذو الرُّمَّة، وقاعٌ عظيمٌ بنَجْد، تَنْصَبُّ فيه أوْدِيَـةٌ، وقد تُخَفَّفُ ميمُه. وفي المَثَل: «تقولُ الرُّمَّةُ: كلُّ شيءٍ يُحَسِّيني إلاَّ الجُرَيْبَ: فإنه يُرْويني». والجُرَيْبُ:

أحد الجسور على وادي الرمة



نهاية وَادي الرُّمَّة في الثويرات



وادٍ تَنْصَبُّ فيه. والجَبْهَةُ. ودَفَعَ رجُلٌ إلى آخَرَ بعيراً بحَبْلٍ في عُنُقِه، فقيلَ لكلِّ مَن دَفَعَ شيئاً بجُمْلَتِه: أعطاهُ برُمَّته. وبالكسر: العظامُ البالِيَةُ، والنَّمْلَةُ ذاتُ الجَناحَيْنِ، والأَرَضَةُ. وحَبْلٌ أرْمامٌ ورِمَمٌ ورمِمٌ، ككتابٍ وعِنَبٍ: بالٍ. وجاءَ بالطِّمِّ والرِّمِّ: بالبَحْرِ والثَّري أو الرَّطْبِ واليابِسِ، أو التُّرابِ والماءِ، أو بالمالِ الكثيرِ. والرِّمُّ، بالكسر: ما يَحْمِلُهُ الماءُ، أو ما على وجْهِ الأرضِ من فُتاتِ الحَشيشِ[٢٨].

وأورد ابن دريد أيضاً: الرُّمة: قاع عظيم بنجد تنصبُّ فيه جماعةُ أودية. وقالوا: الرُّمَة فخففوا. كما بيّن لنا صاحب (جمهرة اللغة) أن ذا الرُّمَّة الشاعر سُمّي ببيت قاله، وهو: أشْعَثَ باقي رمَّةِ التقليدِ؛ يعني: وَتداً. وقولهم: خذ هذا برُمَّته؛ أي: اقْتده بحبله. والرِّمَّة في بعض اللغات: الأرَضة. ويقال: رَمَمْتُ الشيء أرمُّه رَمًّا: إذا أصلحته. و«جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ»، فأحسن ما قالوا فيه أن الطِّمَّ ما حمله الماءُ، والرِّمَّ ما حملته الريحُ. ويضيف في موقع آخر: الرِّمَّة: العظم البالي، والجمع: رِمم وأرمام. والرُّمَة: قطعة من حبل. وتقول العرب: أتيتُك به برمَّته؛ أي: به كلِّه، والأصل أن تأتي بالأسير وقد شددته برُمَّة. والرُّمَة، تخفّف وتثقل: موضع[٢٩].

لمحة تاريخية حول جريان الوادي

يجري وَادي الرُّمَّة عادةً كل قرن من الزمان أكثر من ثلاث مرات، وقد جرى خلال القرنين الماضيين عدة مرات، منها:

- في سنة ١٢٣٤هـ على إثر سقوط أمطار غزيرة على منطقة القَصيم وما حولها، واستمر جريان وَادي الرُّمَّة ٤٠ يوماً. وفي سنة ١٢٤٣هـ، استمرت الأمطار عشرين يوماً[٣٠]. كما سال في سنة ١٢٥٩هـ.
- في عام ١٨٣٨م (١٢٥٣هـ - ١٢٥٤هـ)، تعرضت عُنَيْزة لما وصفه لوريمر بالفيضان الكبير، عندما اتجهت المياه تجاه المدينة، وكوّنت بحيرة تبلغ مساحتها نحو ٢٠٠ ميل مربع، وبقيت مدة عامين[٣١].
- سال الوادي أيضاً في سنة ١٣٦١هـ، وفي سنتي ١٣٦٤ و١٣٦٥هـ[٣٢]. وكذلكَ سال في سنة ١٣٧٤هـ، وجرى ٢٠ يوماً[٣٣]. كما سال في سنة ١٣٧٦هـ، واستمر جريانه ٢٢ يوماً[٣٤].
- وسال سنة ١٤٠٢هـ من يوم الخميس ١٤٠٢/٧/٢٠هـ حتى ١٤٠٢/٧/٢٧هـ[٣٥]؛ مما عطّل حركة المرور يومين بين عُنَيْزة والبدائع.
- كما جرى وَادي الرُّمَّة عدة مرات جرياناً غير قويّ كما في شهر شعبان من سنة ١٤١٦هـ.

حوض وَادي الرُّمَّة متّسع جداً؛ فهو ينبع من مشارف المدينة المنورة ويصبّ شرق البندرية؛ لذا يجمع في حوضه كميات كبيرة من المياه

توضح صور الأقمار الصناعية وجود اتصال بين: الرمة، والأجردي، والباطن. ويمكن لأيّ باحث متمكّن أن يستنتج ذلك من خلال تصفحه Google Earth في الإنترنت

ويحتاج وَادي الرُّمَّة لقطع المسافة بين بُرَيْدَة والرس إلى ثلاثة أيام إذا كان تيّاره قوياً، وقد ذكر الرشيد جريان الوادي من يوم الثلاثاء ١٤٠٢/٧/١٨هـ حتى يوم ١٤٠٢/٧/٢٤هـ[٣٦]. بينما ذكر الوشمي جريان الوادي من يوم الخميس ١٤٠٢/٧/٢٠هـ حتى ١٤٠٢/٧/٢٧هـ. وأعتقد أن سبب الاختلاف هو أنه جرى في الرس يوم الثلاثاء ٧/١٨، ثم وصل بُرَيْدَة يوم الخميس ٧/٢٠؛ أي أن الوادي قطع ما بين بُرَيْدَة والرس خلال ثلاثة أيام. ويجب ملاحظة أن سرعة جريان الوادي تعتمد على عدة عوامل، منها: كمية المياه، ودرجة تشبّع تربة الوادي بمياه الأمطار، ومناخ



المنطقة؛ مثلاً: البرودة، وكثافة السحب.

مناطق تقسيم المياه حول حوض وادي الرُّمَة

المقصود بحوض الوادي مساحة تجمّع مياهه، بينما خط تقسيم المياه هو الخط الفاصل بين حوضين متجاورين. وتغذية وَادِي الرُّمَّة غرباً من الجبل الأبيض الذي يرتفع إلى ٢٠٩٢م، كما تأتيه المياه من بقية الجهات، فإذا اتخذنا من عقلة الصقور مركزاً فإن حوض وَادِي الرُّمَّة سيأخذ شكلاً يشبه المستطيل:

- غرباً: تمثّل حرتا هتيم وخيبر منطقة تقسيم المياه على بعد نحو ٢٣٠كم غرب عقلة الصقور، فمنها يبدأ وادي أبو رمث[٣٧] من جبال الأبيض.

- شمالاً: عقلة ابن جبرين (١٣٨١م)[٣٨] شمال غرب عقلة الصقور على بعد نحو ١٧٠كم؛ فالمياه التي تتجه جنوباً تمد وادي الشّعبة أحد روافد وَادِي الرُّمَّة.

- جنوباً: أما الجنوب، فإن مناطق تقسيم المياه عند جبل الحظارة على بعد نحو ٢٥٠كم من عقلة الصقور، ومرتفعات بلدة عفيف على بعد نحو ٢٢٣كم من عقلة الصقور، التي يبلغ ارتفاعها نحو ١٠٠٠م. ويمكن عدّ منطقة جنوب طريق الرياض - جدة من عفيف إلى جبل الحظارة هي منطقة تقسيم المياه بشكل تقريبي؛ أي: من مرتفعات جنوب غرب عفيف حتى جبل الحظارة على بعد ٧٥كم جنوب غرب عفيف. وبهذا، فإن وَادِي الرُّمَّة تغذّيه السيول جنوباً عن طريق مياه وادي الجرير الذي يعدّ من أهم روافد وَادِي الرُّمَّة، وقيل: إن الرمة لا يكثر سيله حتى يمدّه وادي الجرير.

أهم روافد وادي الرُّمَة

يرجّح معظم العلماء أن الشبكة الكبرى من أودية شبه الجزيرة العربية الحالية اتّخذت شكلها النهائي خلال الحقب المطيرة البعيدة[٣٩]. وكان يبدأ وَادِي الرُّمَّة من الجبل الأبيض في حرة خيبر تحت اسم وادي أبو رمث، ومن السفوح الشرقية لحرة

> تستفيد بُرَيْدَة من مياه وَادِي الرُّمَة بتغذية الطبقات أكثر من عُنَيْزة؛ بدليل أنه خلال جريان وَادِي الرُّمَة يلاحظ ارتفاع منسوب مياه الآبار في بُرَيْدَة بخلاف عُنَيْزة التي لم يلاحظ فيها ذلك



تكثر الرحلات البرية إلى وادي الرمة

خيبر تتجه الشعاب بشكل عام نحو الشرق، وعند بلدة الحويط تبدأ تسمية الوادي بوَادِي الرُّمَّة، وتغيّر الأودية والشعاب اتجاهها نحو الشمال الشرقي حتى بلدة الحليفة، فيغيّر الوادي مجراه نحو الشرق ويرفده وادي الروضة من الشمال؛ أي: شمال وَادي الرُّمَّة. أما اتجاه وادي الروضة، فهو من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، ثم يرفده وادي القهد من الشمال أيضاً، ثم وادي الرقب من الجنوب، وعندما يصل إلى بلدة البعائث يغيّر وَادِي الرُّمَّة مجراه نحو الجنوب الشرقي، ويرفده وادي الشُّعبة من الشمال، وإلى الشمال مباشرةً من عقلة الصقور يلتقي وادي المحلاني مع الرمة الذي يستمر في جريانه في الاتجاه نفسه جنوب شرق، فتغذّيه من جهة الجنوب أودية الجفن والهُميليَّة على بعد ٧كم من عقلة الصقور، ثم يواصل سيره حتى يرفده وادي الأفيهد (الرجلة)، ثم يلتقي بوادي الجرير على بعد نحو ٣٦كم جنوب شرق عقلة الصقور عند درجة ٤٢,٣٠ شرقاً. ومن هذه المنطقة يغيّر وَادِي الرُّمَّة مجراه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي، ثم يرفده وادي ثادج من الشمال، وجرار من الجنوب، ثم شعيب الذّات، ثم وادي الخشيبي من الجنوب، ثم يرفده من الشمال شعيب صبيح، ومقابل مدينة الرس من الجهة الشمالية الغربية يلتقي شعيب الدليمية بوَادِي الرُّمَّة، وقرب البدائع يرفده وادي النساء. وبعد أن يقطع وَادِي الرُّمَّة منطقة الدرع العربي يدخل منطقة الرف العربي، فتصغر الروافد، ويواصل اتجاهه نحو الشمال الشرقي حتى ينتهي شرق البندرية في نفود الثويرات. ويوجد أقصى اتساع لوَادِي الرُّمَّة في المنطقة عند التقائه بوادي النسا بعرض ٢٢كم، وأضيق نقطة في مجراه فيما يسمى بالخنقة لا يزيد عرضه عندها عن ٣٠٠م[٤٠].

ويجب ملاحظة أنه لم يتم التطرّق إلى جميع الأودية؛ كأودية الرس؛ لكثرة الأودية والشعاب التي ترفد وَادِي الرُّمَّة من كلا الجانبين، والأودية الصغيرة أيضاً، خصوصاً في الإقليم الرسوبي، كما في أودية منطقة عُنَيْزة. وكذلك لم يتم التطرّق إلى الأودية التي أرى أنها كانت ترفد وَادِي الرُّمَّة؛ كوادي الرِّشاء، ووادي الأدغم، والأودية التي أخفت التشكيلات الرملية معالمها كما في منطقة جنوب عُنَيْزة مثلاً: شعيب الغزيلة والودي اللذان ينتهيان إلى مناطق رملية تحجزهما عن الوصول إلى وَادِي الرُّمَّة[٤١].

أسباب قلة الروافد في الإقليم الرسوبي

يعدّ وَادِي الرُّمَّة من أخفض المناطق في نجد؛ إذ نجد أغلب الأودية والشعاب تنحدر إليه، إلا أنه بعد الدرع العربي

ودخول وَادِي الرُّمَّة الإقليم الرسوبي في منطقة القَصِيم لا يغذّي وَادِي الرُّمَّة أودية كبيرة أو شعاب كالتي توجد في منطقة الدرع، وذلك لعدة أسباب، منها:

- منطقة الدرع ذات صخور غير مسامية، بعكس منطقة الرف العربي التي تتميّز بمسامية صخورها؛ مما جعلها تحتفظ بالماء.
- شبه استواء السطح؛ مما يساعد على تسرّب المياه إلى أسفل، أو تبخرها، أو ضياعها شمالاً وجنوباً.
- وجود المنخفضات المغلقة من جميع الجهات؛ مما يجعل أغلب الجداول تنحدر إليها فتحتفظ بالمياه.
- وجود الكثبان الرملية التي تعيق حركة المياه، وتجعلها مبعثرة في مناطق متفرقة، بالإضافة إلى قدرتها العالية على امتصاص المياه بسبب المسامية.

انحدار مجرى وادي الرُّمَّة

إنَّ الاتجاه العام لوَادِي الرُّمَّة هو اتجاه انحدار السطح نفسه في الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي، وقد قدّر معدل ميل هضبة نجد ١:١٠٠٠[٤٢]. ويبدأ وَادِي الرُّمَّة من الجبل الأبيض في حرة خيبر، وهو يقع على بعد ٥٦كم جنوب غربي الحائط في حائل. وهذا الجبل يمثّل قمة حرة خيبر، وهو أعلى جبل في نجد؛ إذ يبلغ ارتفاعه (٢٠٩٣م). وعندما يبلغ (وَادِي الرُّمَّة) عقلة الصقور يكون ارتفاع مجراه (٧٣١م)، وإذا وصل شمال غرب الرس يكون ارتفاع مجراه ٦٦٢م، على حين يكون بين بُرَيْدَة وعُنَيْزة - إلى الشرق قليلاً - ٦٠٢م. فيبلغ بذلك انخفاض الوادي من عقلة الصقور حتى جنوب بُرَيْدَة ٦٩سم لكل كيلومتر، وعندما يصل إلى شمال اليُتَيِّمَة يبلغ ارتفاع المجرى ٥٨٨م. أما في جنوب غرب الرُّبَيْعِيَّة بنحو ٥ كم، فيكون ارتفاع مجراه ٥٧٤م، وينتهي شرق البندرية على ارتفاع يبلغ ٥٦٠م تقريباً (عن سطح البحر).

معدل انحدار الوادي

بما أن طول المجرى ٥٣٩كم، وفارق الارتفاع من جبل الأبيض (٢٠٩٣م) حتى شرق البندرية (٥٦٠م)، هو ١٥٣٣م؛ إذاً معدل الانحدار ١٥٣٣م ÷ ٥٣٩م = ٢،٨٤م لكل كيلو متر تقريباً.





صورة عن قرب توضّح قوة جريان وَادِي الرُّمَّة

نهاية وادي الرُّمّة

ينتهي وَادِي الـرُّمَّـة شرق البندرية في الأسـياح حيث تحجزه رمال الثويرات. ومن شأن مثل هذا السد الطبيعي أن يضعف سرعة جريان المياه أمامه؛ أي: في القَصِيم، فيتيح لمياه الوادي مدة أطول للبقاء في المجرى، ومن ثَمّ يتيح فرصة أكبر لتسرّب هذه المياه إلى جوف الأرض. ويبدو لنا أن في ذلك تعليلاً لما اشتهرت به منطقة بُرَيْدَة - عُنَيْزة من وفرة مياهها نسبياً إذا ما قورنت مثلاً بمنطقة سدير أو منطقة الرياض[٤٣]. والمناطق الواقعة بين عُنَيْزة وبُرَيْدَة ماؤها دائم الجريان، غير أنه ملح[٤٤].

ويبدو من كلام كبار السن أن بُرَيْدَة تستفيد من مياه وَادِي الرُّمَّة بتغذية الطبقات أكثر من عُنَيْزة؛ بدليل أنه خلال جريان وَادِي الرُّمَّة يلاحظ ارتفاع منسوب مياه الآبار في بُرَيْدَة بخلاف عُنَيْزة التي لم يلاحظ فيها ذلك مع أن عُنَيْزة أقرب إلى الـوادي من بُـرَيْـدَة، وربمـا يكون السبب في ذلك عامل الارتفـاع. والتحقّق من صحة ذلك يتطلّب دراسـة متفحّصة للخرائط الجيولوجية، وسمك الطبقة الحاملة للمياه، ودراسة ميل الطبقات، وهل ميل الطبقات فعلاً يتّجه ناحية بُرَيْدَة أم لا. ويُلاحظ في هذه المنطقة من الوادي ظاهرة تصحّر النخيل، وقد فقدت فروعها الخضراء في وسط الـوادي، وربما يكون السبب في ذلك ارتفاع نسبة الملوحة في هذه المنطقة؛ مما أدّى إلى تجميع الأمـلاح على التربة، فمن الملاحظ أنه يظهر على السطح بعض البقع الملحية. وهناك من يرجع (ظاهرة موت النخيل) في هذه المنطقة إلى عامل انقطاع المطر عدة سنوات. ولا نعتقد ذلك؛ بسبب نمو النخيل في مناطق أخرى في الوادي نفسه.

سد الزغيبية

عند جريان وادي الرمة، فإن بعض مياهه تدخل إلى روضة الزغيبية من جهة الشمال؛ لذا حاول أهل عُنَيْزة تحويل فيضان وادي الرمة عن مزارعهم في الزغبية؛ لأنه يتلفها تلفاً بليغاً، فعملوا في سنة ١٢٤٥هـ سداً ما لبث أن تهدّم. ثم عمل المرحوم الشيخ عبدالله السليمان الحمدان (أول وزير في المملكة) سداً في سنة ١٢٧٦هـ في أضيق منطقة يدخل معها الوادي من الأسمنت المسلح، وارتفاعه

هناك من يرجع (ظاهرة موت النخيل) في بعض مناطق الوادي إلى عامل انقطاع المطر عدة سنوات. ولا نعتقد ذلك؛ بسبب نمو النخيل في مناطق أخرى في الوادي نفسه

٥م تقريباً، وطوله ١٥٠٠م[٤٥].

ولا يرى الباحث وضع السدود في المنطقة التي تقع بين بُرَيْدَة وعُنَيْزة مع أن له إيجابيات؛ كحفظ المياه قبل أن تغور في الرمال. وسيتم التحدث عن الموقع المناسب بشيء من التفصيل في (مشروع تجريبي مقترح)[٤٦].

مشروع تجريبي مقترح

إن حوض وَادِي الرُّمَّة متّسع جداً؛ فهو ينبع من مشارف المدينة المنورة ويصبّ شرق البندرية؛ لذا يجمع في حوضه كميات كبيرة من المياه لا يُستفاد منها. وتقدّر نسبة ما يتبخّر من مياه الأمطار أحياناً بـ ٧٠٪[٤٧]. ونسبة المياه

أهم السدود الواقعة على وادي الرُّمة:

اسم السد	النوع	سعة التخزين	الغرض من إنشائه	طول السد	ارتفاع السد
سد وادي الرمة	خرساني	٥٠٠,٠٠٠ م³	حجز الفيضانات والتغذية	٧٠٠م	٧م
سد المطلاع بالنبهانية، وتم تنفيذه سنة ١٤٠٤هـ	خرساني	٢٥٠,٠٠٠ م³	تغذية	٢٥٠م	٨م

الهوامش والمراجع

١- مصدر المعلومات الخريطة الجغرافية لمربع وَادِي الرُّمَّة، ج م ٢٠٦ ب، والخريطة الجغرافية للوحة الحجاز الشمالي ج م - ٢٠٥ ب، وزارة البترول والثروة المعدنية، وخرائط الفارسي، وخرائط NG التي تغطّي المنطقة.

٢- الشريف وعبدالقادر، موارد المياه الجوفية في حوض النفود الرسوبي الكبير، الدارة، صفر ١٣٩٨هـ، ص١٥٥.

٣- عندما يختفي الوادي تحت الرمال فإن القياس يتم بخط مستقيم.

٤- تناقلت بعض الصحف هذا الخبر على أنه اكتشاف علمي جديد، بينما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل نحو ١٤ قرناً في حديث صحيح.

٥- رواه مسلم، حديث ١٥٧.

٦- خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، ج١، ص٣١٦.

٧- معجم البلدان، ج٣، ص٢١٣.

٨- الأحاديث المختارة، ج١٠، ص٢٨٦.

٩- القاموس المحيط، ج٢، ص٢٢٣.

١٠- لسان العرب، ج٥، ص٢٢١.

١١- معجم البلدان، ج٣، ص٤١٢.

١٢- باختصار، معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٢.

١٣- الأحيدب، أودية منطقة الرياض، ١٤١٧هـ، ص١٠٢.

١٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٧٢.

١٥- العبودي، بلاد القصيم، ج٦، ص٢٤٨٠.

١٦- تهذيب اللغة، ج٣، ص٤٨٠.

١٧- الشايع، نظرات في معاجم البلدان، الكتاب الثالث، ص٢٩١.

١٨- التعليقات والنوادر، ج١، ص٥.

١٩- أيسر التفاسير لأسعد حومد، ج١، ص٣٦٦١.

٢٠- مختار الصحاح، ج١، ص١٢٦.

٢١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٧١، ٧٢.

٢٢- العين، ج٢، ص١٧١.

٢٣- المحيط في اللغة، ج٢، ص٤٢٨، ٤٢٩.

التي تغذّي الطبقات الحاملة للمياه قليلة جداً؛ إذ إن المياه عندما تدخل في الطمي تتبخر نسبة كبيرة منها بواسطة نتح النبات، أو من خلال تبخر المياه التي تعود إلى السطح (حركة المياه الشعرية إلى أعلى)، ويمكن الاستفادة من المياه عن طريق إنشاء السدود أو بواسطة نقل المياه إلى الطبقات الحاملة للمياه عن طريق الأنابيب.

ونرى أن عملية إنشاء السدود بأرض القَصيم أقل فائدة، وتكاد تكون غير مجدية، وذلك لعدة أسباب، منها:

- شدة الحرارة في المنطقة التي تجعل نسبة البخر مرتفعة.
- أغلب المناطق تكون أراضيها مستوية السطح؛ لذا يصعب حجز المياه، بالإضافة إلى ارتفاع كلفة إنشاء السدود؛ بسبب طول السد. ويمكن التغلب على هذه المشكلة بإنشاء السدود في مناطق الخوانق، ولكن تبقى مشكلة البخر.

أما الطريقة الثانية، فأرى أنها مجدية، وهي تجميع المياه في خزانات معزولة تماماً عن تسرّب التبخر في مناطق الدرع العربي، مثلاً في منطقة الرس، ثم تنقل إلى منطقة التكوينات الرسوبية؛ كتكوين الساق بالقرب من رياض الخبراء، خصوصاً أن صخور الساق تتميّز بمسامية عالية. ويتم نقل المياه عن طريق الأنابيب تحت سطح الأرض بصورة معزولة تماماً عن أشعة الشمس. ولو فرضنا جدلاً أن المجرى لم تطمره الرواسب، لكان من الأولى أن يسلك صاحب كتاب المَنَاسِك (توفي ٢٨٥هـ) أو غيره (قبل أكثر من ١٢٠٠ سنة) طريق الوادي بدلاً من التكلف والعناء عند صعود تلك الكثبان. هذا ما عَنَّ لي قوله، والمِنَّةُ مَنْ مَنَّ الله عليه بالإيمان.

٢٤- الاشتقاق، ج١، ص٦٢.
٢٥- الصحاح في اللغة، ج١، ص٢٧١.
٢٦- المغرب، ج٢، ص٣٩٩.
٢٧- تاج العروس، ج١، ص٧٧٢٨.
٢٨- القاموس المحيط، ج٣، ص٢٣٣.
٢٩- جمهرة اللغة، ج١، ص٤١، ٤٢، ٤٤٦.
٣٠- الأحيدب، المخاطر الطبيعية في المملكة العربية السعودية وكيفية مواجهتها: دراسة جغرافية، ١٤١٧هـ، ص٧٨.
٣١- العبودي، بلاد القَصيم، ج٦، ص٢٥٠٢.
٣٢- العبيد، البدائع واحة القَصيم الخضراء، ١٤٠٥هـ، ص٣٤.
٣٣- الحقيل، من أحداث الجزيرة العربية من عام ٥٠٠ إلى عام ١٤١٦هـ، ص٩٧.
٣٤- العبودي، بلاد القَصيم، ج٦، ص٢٤٨١.
٣٥- الوشمي، الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القَصيم، ص٤٠.
٣٦- الرشيد، الرس، ص١٥.
٣٧- ذكر العبودي: (وادي الرِّمْث). انظر: العبودي، بلاد القَصيم، ج٦، ص٢٤٧٩. وذكر الوليعي: (أبو رمث). انظر: الوليعي، جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة، ص٢٦٧. وأيضاً في خرائط الفارسي ذكر: (أبو رمث)، وفي لوحة رقم NG 37 – NE.
٣٨- خريطة حائل، لوحة رقم NG 37 – SE.
٣٩- الوليعي، الجغرافيا الحيوية للمملكة العربية السعودية، ص٥٤.
٤٠- عُنَيْزة: قصة الأصالة والطموح، ص٩٥.
٤١- الحميدي، ١٣٩٥ - ١٣٩٦هـ، جغرافية عنيزة الطبيعية، ص٥٠.
٤٢- الشريف، عُنَيْزة، ص٣٧.
٤٣- أبو الحجاج، بحوث في العالم العربي، ص٢٣٢.
٤٤- جريدة الجزيرة، عدد ٨٩٤٨، بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ١٤١٧هـ، منصور الصائغ.
٤٥- الحميدي، ١٣٩٥ - ١٣٩٦هـ، جغرافية عُنَيْزة الطبيعية، ص٤٥ (نقلاً عن الخويطر).
٤٦- لمزيد من التفصيل عن وَادِي الرُّمَّة وهذا المشروع انظر كتابي الموسوم بـ(أرض القَصِيم)، ص٧٨.
٤٧- الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ج١، ص٨٤.



الســاعــة

التي حيّرت العلماء والفلاســفة



مجدي إبراهيم علي عبدالجواد

الجيزة - مصر

عرف الإنسان التوقيت في شؤون حياته منذ آلاف السنين، فعرف الفصول الأربعة، واستخدمها في الزراعة، ثم عرف الشهور والدقائق والثواني. وفي العصر الحديث، عرف أجزاء الثانية، فالساعة كانت الأداة التي يتعرّف بها الوقت، لكن هذه الساعة ليست الوحيدة التي عرفها الإنسان؛ فهناك ساعة أقدم منها بكثير، هي أعجب ساعة في الكون. نعم، إنها الساعة البيولوجية Biological Clock، فهي تدق في أعماق جميع الكائنات الحية، تحدّد دورات حياتها بمهارة ودقة فائقة، ولولاها لانقرضت صور كثيرة من الحياة، ولحلّت الفوضى في هذا الكوكب. هذه الساعة الغريبة والفريدة تحملها الكائنات الحية في خلاياها وأنسجتها، لكن العجيب أنه لا أحد يستطيع تحديد موقعها بصورة قاطعة ومؤكدة حتى الآن.

ومن قديم الزمن أيضاً، لاحظ الإنسان حركة الشمس والقمر، وتعاقب الفصول، وأيقن أنه لابد من قوانين تحكم هذه الحركة، وأيقن أن الكون منسّق طبقاً لقوانين إلهية صارمة لا يتطرق إليها الخطأ. وأخيراً جداً اكتشف الإنسان أنه يوجد في جسمه هو الآخر ساعة تحكم حركته وحركة كل شيء فيه، وهي الساعة البيولوجية، فاكتشف أن أجهزة جسمه تعمل وفقاً لإيقاع معين، هو «الإيقاع البيولوجي»، فكل عضو وجهاز في جسمنا له إيقاع معيّن يسير عليه من دون خلل، ويبدأ من نشاط الأعصاب الذي يُقاس بجزء من الألف من الثانية حتى نشاط القلب الذي يُقاس بالثواني. ثم هناك دورة معينة للأحلام تتم كل تسعين دقيقة، أما النشاط اليومي فيتبع دورة الأربع والعشرين ساعة، والدورة الشهرية تحدث كل سبعة وعشرين يوماً، والحياة كلها تدور في دورة مدتها لكل شخص عمره المقدّر له. حتى العواطف، اكتشف العالم ليبر في عام ١٩٧٨م أن لها دورة معينة كل ٢٧,٥ يوماً؛ أي: توازي تقريباً الشهر القمري، ولاحظ أن محاولات



هجرة الحيوانات ترتبط بساعتها البيولوجية

الانتحار أو الاعتداء على الآخرين تتركز في وقت ظهور القمر كاملاً في السماء، وأن الحالات النفسية الحادة تزداد في الربع الأول من الشهر القمري، وتقلّ في حالة ظهور القمر الكامل والقمر الوليد. ولفت نظر العلماء إلى أن انتقال الشخص من قارة إلى أخرى يؤدي به إلى مدة تراوح بين أربعة أيام وخمسة يشعر فيها بالتعب حتى يستعيد التكيّف مرة أخرى. وفسّر العلماء هذه المدة بأن الشخص يحتاج إلى مهلة حتى تنتظم ساعته الداخلية مع الساعة الخارجية، وقد تم تطبيق هذه المعلومة عملياً.

وبالنسبة إلى الرياضيين، أصبحوا في أسفارهم يتّبعون ساعة البلد الذي سيرحلون إليه قبل السفر بأسبوع؛ حتى يتيحوا لأنفسهم فرصة ضبط ساعاتهم الداخلية قبل الدخول في المسابقات، وأصبح الدبلوماسيون ينتظرون مدة أسبوع للتكيّف قبل اتخاذ القرارات المهمة. كما لوحظ أيضاً أن معظم الناس يفضّلون السفر من الشرق إلى الغرب عن السفر من الغرب إلى الشرق؛ لأنه من الأسهل عليهم أن يناموا في وقت متأخر ليلةً بعد الأخرى من النوم أكثر تبكيراً ليلةً بعد الأخرى.

ضبط الساعة الداخلية

ولاحظ العلماء أيضاً أنه مع التقدم العلمي الكبير في الحياة المدنية، ووجود الأضواء الصناعية ورحلات الطائرات، ظلّ الإنسان كما هو دائماً يستيقظ ويعمل في وجود الشمس، وينام عندما يأتي الظلام. وفسّر العلماء هذه الظاهرة بأن الساعة الداخلية خلال عملية التطور يتم ضبطها على الإيقاع اليومي ٢٤ ساعة، وسُمّي هذا الإيقاع بالإيقاع (السيركاديان). ويرى معظم العلماء أن هذا الإيقاع موجود في كل خلية من خلايا الجسم في الظروف الثابتة. ففي الظروف العادية يوجد

توافق كبير بين الإيقاع اليومي الداخلي للشخص وأحداث الحياة اليومية. وهناك نوعان من البشر: الشخص النهاري، والشخص الليلي، ويختلفان في أنهما يستعملان مؤثرات خارجية تختلف لكل منهما لتنظيم الإيقاع اليومي الداخلي، ومن دون هذه المؤثرات الخارجية فإن الإنسان يتبع إيقاعاً مدته نحو ٢٤ ساعة، ومن دون وجود المؤثرات الخارجية يحدث عدم ضبط تام للإيقاع يتضمن حدوث فرق عدة دقائق يومياً بالزيادة أو النقصان، وتسمّى هذه الظاهرة «الانسياب الحر». واستغل العلماء هذه الملحوظة في تفسير حدوث الأرق في بعض حالات الاكتئاب، فعندما يكتئب المريض يبدأ في فقدان الاهتمام بالمؤثرات الخارجية، ويبدأ الزمن بالنسبة إليه يمرّ في حالة انسياب حرّ، فيصبح الجسم مهيأً للاستيقاظ في أثناء

أخيراً جداً اكتشف الإنسان أنه يوجد في جسمه ساعة تحكم حركته وحركة كل شيء فيه، وهي الساعة البيولوجية

الليل، والنوم في أثناء النهار. ولوحظ أيضاً أن بعض الأشخاص لديهم المقدرة على ضبط ساعتهم الداخلية للاستيقاظ مبكراً دقيقةً أو دقيقتين قبل رنين جرس المنبّه في الصباح.

ولم يتم تفسير هذه القدرة حتى الآن، ولا معرفة أكانت وراثية أم مكتسبة. ووجد أيضاً أنه بجانب إيقاع الأربع والعشرين ساعةً «إيقاع السيركاديان»، فإن الجسم يحتوي على نوعين آخرين من الإيقاع: أحدهما يقلّ عن الأربع والعشرين ساعة، وسُمّي هذا الإيقاع «الألترديان»، والآخر أكثر من الأربع والعشرين ساعة. ويسمي بإيقاع «الأنفراديان».

حيّرت هذه الساعة الحكماء والفلاسفة منذ قديم الزمن: فالفيلسوف اليوناني أرسطو أشار إليها حين طرح منذ ألفي سنة سؤالاً أثار ولعه، وهو: «لماذا تنتفخ أنثى قنفذ البحر كلما أصبح القمر بدراً كل شهر؟»، وجاء من بعده آخر ليسأل: لماذا تتحرك أوراق شجر التمر الهندي على مدار ساعات اليوم بنظام دقيق؟ وجاء بعدهما علماء كثيرون يطرحون الأسئلة الحائرة نفسها عن الطبيعة، ودور هذه الساعة التي لا تزال لغزاً بلا حل مع أن آثارها في دورات حياة الكائنات المختلفة تدلّ عليها؛ مما حفز العملية لدى العلماء للكشف عن أسرارها وخفاياها.

ومنذ أكثر من نصف قرن، نجح العالم البريطاني كلود تومسون في اقتحام الأبواب الغامضة لهذه الظاهرة، وانتقل من ميدان الأسئلة الحائرة إلى آفاق جديدة أتاحت للعلماء من بعده الاقتراب من أسرار هذه الساعة البيولوجية المثيرة، وخرجت من المعامل آلاف الأبحاث ومئات الكتب التي تحاول جاهدةً الكشف عن ماهية هذه الساعة، وظهرت حقائق غريبة لم تطرأ على البال قط، حقائق تؤكد أن كل كائن حي يحمل

سرطان البحر يغيّر لون جسمه على مدار اليوم



معه ساعة خاصة به تشير إلى مواقيت محددة تضبط نشاطه، وتنظم دورات حياته بدقة، وكأنما تتبع هذه الكائنات مبدأ (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

وتشهد هذه البحوث أشياء مدهشة؛ إذ يتلاعب العلماء بهذه الساعة فيقدّمونها ويؤخّرونها بوسائل علمية؛ لمعرفة أثر اختلال الوقت في دورة حياة الكائنات الحية، بل إن هذا التلاعب في الساعة البيولوجية امتدّ إلى الإنسان أيضاً.

تؤثر في كل أنشطة الجسم

يقول العلماء: إن هذه الساعة البيولوجية خلية عصبية في حجم حبة الرمل داخل المخ، وتربطها بالعين شبكة متّصلة من الأعصاب تقوم بتوصيل الإحساسات المختلفة بأوقات اليوم «الضوء أو الظلام» إلى المخ، وتنظيم الحركة الهرمونية للجسم، فتنشط هرمونات النمو ليلاً في أثناء النوم، وتزداد نسب الأدرينالين عند الاستيقاظ. ولا يقتصر الأمر على النوم واليقظة، بل إن كل أنشطة الجسم تتأثر طوال اليوم بحركة الساعة البيولوجية الموجودة داخله؛ مثل: ضغط الدم، وإفراز العصارات الهضمية، وضربات القلب، وغيرها.

وقد أثبتت الأبحاث والتجارب تأثير الساعة البيولوجية في جسم الإنسان في الأعمال التي يؤديها طوال اليوم، وأن كل عمل له وقت محدد يكون الإنسان في أفضل حالاته عندما يمارسه؛ فساعات الصباح أفضل أوقات الحب؛ إذ تكون المعدلات الهرمونية في ذروتها. وساعات منتصف الصباح أفضل الأوقات للتركيز الذهني؛ لأن هذه الساعات الأنسب للمذاكرة والأعمال الذهنية والتفكير لاتخاذ القرارات. وأثبتت التجارب أن ذاكرة الإنسان تبقى في ذروة نشاطها من منتصف الليل حتى التاسعة صباحاً. أما ساعات الظهيرة، فهي أفضل الأوقات للعمل والاجتماعات والأعمال المنزلية للنساء. وساعات ما بعد الظهيرة هي أقل أوقات اليوم بالنسبة إلى الإحساس بالألم، وأفضل الأوقات للراحة والنوم؛ لأن الإيقاعات الطبيعية للجسم في هذا الوقت تجعل الإنسان يشعر بالرغبة في النوم. أما أوقات ما بعد الخامسة مساءً، فهي الأفضل لممارسة الرياضة.

للزواج والطلاق مواسم

ولم تقتصر الأبحاث والدراسات عن الساعة البيولوجية في جسم الإنسان، التي تتحكم في مزاجه، وتؤثر في أدائه الأعمال بما تقوم بتوصيله من إحساسات مختلفة إلى المخ بأوقات اليوم «الضوء أو الظلام»، بل قام العلماء الألمان بدراسات علمية عن علاقة التكاثر بعوامل البيئة؛ كدرجات الحرارة، وعدد ساعات بقاء ضوء الشمس خلال النهار في أثناء النوم. وقد انتهت هذه الدراسات إلى نتائج، أهمها: أن فرص الحمل تزداد خلال الأشهر التي تظلّ فيها الشمس مشرقةً لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وأكدت الدراسات والأبحاث الاجتماعية والميدانية التي أجراها الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاءات في القاهرة أن للسعادة الزوجية مواسم معينة.

علم الإيقاعات البيولوجية

إن علم الإيقاعات البيولوجية علم جديد، لكنه يتطور بسرعة مذهلة بفضل الدراسات والتجارب المتخصّصة. وهو ليس علماً أساسياً فحسب، بل ينفذ مباشرةً إلى تطبيقات علمية مهمة جداً؛ فإنه يمكّن الأطباء من إعطاء وصفات أكثر دقة، ومن خلاله ينصحون مرضاهم بأهمية تناول الأدوية في ساعات معينة. كما أن هذا العلم الحديث يعرض حلولاً جذرية حول الإيقاع المدرسي، وضرورة مجاراته للإيقاع البيولوجي، خصوصاً عند الطفل الذي عادةً نجبره على القراءة والكتابة والمذاكرة خلال ساعات

الساعة الداخلية خلال عملية التطور يتم ضبطها على الإيقاع اليومي ٢٤ ساعة، ويرى معظم العلماء أن هذا الإيقاع موجود في كل خلية من خلايا الجسم

النهار التي يكون خلالها غير قادر على أن يستوعب شيئاً على الإطلاق. وليست الوظائف التي يؤدّيها جسمنا ثابتةً عبر الوقت، فهناك دورات تتكرّر إيقاعياً، ومثال ذلك درجة حرارة الجسم: فهي عادة تكون أعلى من معدلها العادي بين الساعتين الرابعة والسادسة عصراً، وتكون إفرازات الغدة الكظرية غزيرة في الثامنة صباحاً. كما بدأ الأطباء يفهمون ظهور أمراض معينة: مثل: حدوث الأزمات القلبية بمعدل أكبر في آخر ساعات الليل، أو بداية الصباح؛ لأن هناك تخثراً مفرطاً للدم نحو الثامنة صباحاً نتيجة إيقاع جسمي عادي يمكن أن يكون كبيراً في بعض الحالات المرضية، وكذلك تقلّص حجم القصبة الهوائية في الليل عادةً، وهذا ما يفسّر الربو الليلي. وهناك أيضاً أمراض كثيرة تظهر حسب إيقاعات موسمية، سواء أكانت من الطبيعة: مثل: تقلّب الطقس والرطوبة، وتكاثر الجراثيم في الهواء والمياه، أم إيقاعات داخلية متعلقة بجسم الإنسان ذاته؛ مثل: الأمراض السرطانية، والتشوهات الخلقية. وبفضل علم الإيقاعات البيولوجية، تمكن فريق من الأطباء الأمريكيين النفسيين من معالجة عدد من حالات الأرق المزمن عند كثير ممن لم يفلحوا في تعديل ساعاتهم البيولوجية، إما لظروف عملها، وإما نتيجة مشكلات اجتماعية.



وفي الطب النفسي، نعلم جيداً أن بعض حالات الاكتئاب والانهيار العصبي تتميّز بتغيّر كثير من الإيقاعات البيولوجية، خصوصاً إيقاع العمل، والراحة، والإيقاع الحراري. ويُعالج المصابون بهذه الحالات بتطويل نهارهم أو تقصيره. ومن بين الوسائل العلاجية التي تعيد إيقاعاتهم البيولوجية الطبيعية وتعدّلها وتضبطها تعرّضهم لنور مكثّف ولامع جداً؛ للحد من إفراغ هرمون «الميلاتونين» من الغدة الصنوبرية الموجودة في الدماغ، التي تنشط كثيراً في الظلام. ويؤكد البروفيسور فرانسيس لوفي – من المعهد الفرنسي لأمراض السرطان والأمراض الوراثية – أن البحوث والتحليل والتجارب المخبرية تجري الآن لمعرفة إيقاعات الخلايا السرطانية في جسم الإنسان، وزمن أوج نشاطها؛ لتعديل تركيبات الدواء، وتحديد زمن تناوله. وهـــذا نجـح في تجـارب كثيرة أجريت على حيوانات مخـبريــة؛ منها الفئران. ويأمل الأطبـاء أن ينجح هـذا الأمـر مع الإنســان، وقد يكون ذلك بداية

القضاء على هذا المرض الخبيث، وتحقيق انطلاقة ثورية جديدة في عالم الطب وصناعة الأدوية.

نعم، إن علم الإيقاعات البيولوجية لا يزال في بدايته، ولا تزال الأسئلة التي يطرحها أكثر من الإجابات التي يحصل عليها. وعلى رغم الإنجازات العلمية والطبية المثيرة التي حققها العلماء في العصر الحديث لا تزال هذه الساعة البيولوجية لغزاً محيّراً أمام العلماء الذين يشهدون بدقة خلق الله العظيم وروعته.

مخ القواقع معجزة!

للقوقع مخ بدائي لا يزيد على عقدة عصبية صغيرة، بها بضعة آلاف من الخلايا، إلا أن العالم الأمريكي فيلكس مشتر موازر جمع عدداً من القواقع، ووضعها في حوض كبير به ماء من البحر، ووضع عليها مصباحاً كهربائياً يضيء وينطفئ في مدد زمنية محددة. وبدأ فيلكس تجربته بتقديم الطعام إلى القواقع في الثامنة صباحاً، والثامنة مساءً، ولكنه كان يضيء المصباح. ثم قام فيلكس بتحطيم أحد القواقع، واستخرج مخه، وأخذ منه خلية عصبية واحدة لا يزيد قطرها على نصف المليمتر، ووضعها في وسط غذائي، وغرس في داخل الخلية سلكين دقيقين يتقابلان في جهاز إلكتروني حساس لقياس التغيرات التي تطرأ على الجهد الكهربي والنشاط الكهروكيماوي للخلية العصبية المعزولة. تُرى ماذا وجد؟

لقد وجد أن الخطوط المتذبذبة يزداد عددها إلى نحو أربعين خطاً في الدقيقة في الصباح في المدة التي كان يقدّم فيها الطعام إلى القواقع، وكانت النبضات تستمر على هذا النحو ثلاث ساعات، ثم تنخفض بعدها الخطوط إلى عشر خطوط في الدقيقة، ثم تعود إلى الحالة نفسها في صباح اليوم التالي. وفي المساء كانت النتيجة نفسها تتكرّر. هذا التغيّر في عدد الخطوط المتذبذبة يعني زيادة النشاط العصبي، وأن الخلايا العصبية لمخ القوقع تكون منخفضةً في ذاكرتها البدائية بالأمن، واستطاعت ضبط ساعتها البيولوجية بكفاءة عجيبة، والأغرب أن العالم فيلكس لاحظ أنه كان بعد كل أربعة عشر يوماً من الليل أو النهار. وبعد دراسة مستفيضة لهذه الظاهرة وجد أن سببها يعود إلى ظاهرة «المد» في مياه البحر مرة كل أربعة عشر يوماً، فكان يذهب إلى شاطئ البحر فيسجّل جهازه الحسّاس هذه الذبذبات العالية، وهناك وجد أن حركة المد قد بدأت فعلاً. معنى ذلك أن الساعة البيولوجية الدقيقة التي تنظّم حياة القوقع تحتفظ أيضاً بتوقيت هذه الظاهرة البحري، كأن هذه الإشارات بمنزلة إنذار للقواقع تجاه الظاهرة الطبيعية التي تحدث في البحر؛ للحفاظ على نظام حياتها، وبعدها يحدث المد. والأكثر من ذلك أنه أخذ خلايا عصبية من مخ القواقع، وأوصلها بالجهاز عن طريق القطبين الكهربيين الرفيعين، فلم يختلف سلوك هذه الخلايا عن الخلية الأولى التي عزلها في معمله.

هجرة الساعة البيولوجية

يعدّ العلماء هجرة الحيوانات لغزاً غامضاً، واكتشفوا أنها تتبع توقيت الساعة البيولوجية في داخلها، ودورتها الزمنية سنة. ويؤكد العلماء أن هذه الساعات البيولوجية تحدث مواقيت بداية رحلة الهجرة للطيور المهاجرة ونهايتها. وفي كينيا، تهاجر الأبقار الوحشية كقطعان تضم الآلاف عبر مضيق ماساي لتقطع ألف ميل وراء الأكل والماء، وتترك السهول العشبية بعدما تلتهم أعشابها، ولما تقفر تهجرها لتعود إليها بعد أن تنمو من جديد.

والحيتان الحدباء تتغذى في المناطق القطبية المعتدلة، ولما يحين موسم تناسلها تهاجر آلاف الأميال لتصل إلى الشاطئ حيث تضع بيضها يفقس هناك. وفي الخريف، تترك ثعابين الماء أنهار أوربا وأمريكا لتصل إلى المحيط الأطلنطي، وتتجمع قرب برمودا في بحر «سارجاسو» لتضع بيضها أو تموت هناك. ولما

> على رغم الإنجازات العلمية والطبية المثيرة التي حققت في العصر الحديث لا تزال الساعة البيولوجية لغزاً محيّراً أمام العلماء



للقمر تأثيراته النفسية العميقة في حياة الإنسان

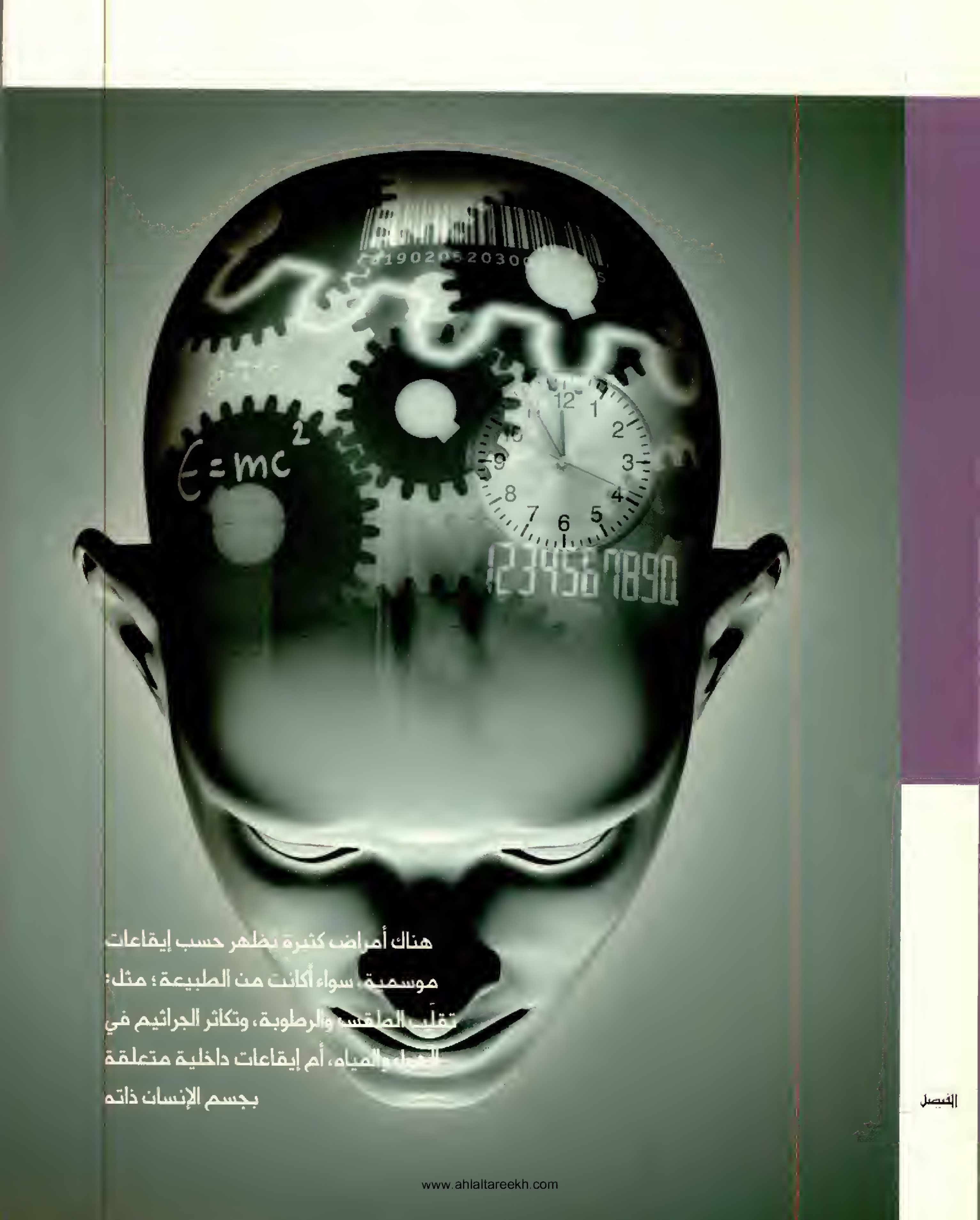
يفقس بيضها تحمل تيارات المحيط اليرقات في رحلة تستغرق ثلاث سنوات تصبح خلالها ثعابين يافعة، وتعود إلى الأنهار لتقضي حقبة المراهقة في مياهها العذبة لمدة عشر سنوات، تعود بعدها إلى بحر سارجاسو لتبيض وتموت هناك. وحتى الآن لا يوجد من يعرف سرّ هذه الهجرة.

عازف الكمان

أما السرطان الذي يعيش على شواطئ البحار والمحيطات، فقد أطلقوا عليه «عازف الكمان»؛ لأنه يملك مخلباً واحداً كبيراً يحرّكه بطريقة تشبه حركة يد عازف الكمان وهي تمسك بالقوس وتجري به على أوتار الكمان. والساعة البيولوجية له مرئية؛ إذ إنه يغيّر لون جسمه على مدار اليوم؛ ففي الصباح يكون لونه أصفر فاتحاً، وكلما ارتفعت الشمس في الأفق يبدأ اللون بالتغيّر تدريجياً إلى الفاتح مرة أخرى مع غروب الشمس، وعندما يحلّ الليل يصبح لونه مثل لون العاج،



عندما يكتئب الشخص يبدأ بفقدان الاهتمام بالمؤثرات الخارجية



هناك أمراض كثيرة يظهر حسب إيقاعات موسمية، سواء أكانت من الطبيعة؛ مثل: تقلّب الطقس والرطوبة، وتكاثر الجراثيم في الهواء والمياه، أم إيقاعات داخلية متعلقة بجسم الإنسان ذاته

الأصلية قرب المياه، يرجع إلى حكمة عظيمة تعلّمتها منذ ملايين السنين، وهي أن مياه البحر عندما تنحسر في حالة حدوث ظاهرة الجزر تترك وراءها بعض الرزق الذي يصلح غذاءً لهذه السرطانات؛ لذلك فإنه عندما تدقّ الساعة البيولوجية معلنة انتهاء حالة المد، وبدء حالة الجزر، تندفع السرطانات سعيدةً بالطعام الذي ينتظرها.

وللنبات ساعة

ولاحظ عالم النباتات جاك دي ميران أن أحد أنواع نبات



بعض الأشخاص لديهم المقدرة على ضبط ساعتهم الداخلية للاستيقاظ

ويظل هكذا حتى فجر اليوم التالي؛ إذ يبدأ دورته اللونية من جديد. والمدهش أن بعض سكان السواحل يستطيعون معرفة الوقت بدقة خلال معرفة الدرجة اللونية لجسم السرطان.

والواقع أن الساعة البيولوجية لجميع أنواع السرطانات مضبوطة بدقة مع حركة المد والجزر في المنطقة نفسها التي تعيش فيها، ومن ثَمّ فهي تختلف من منطقة إلى أخرى، ومن نوع إلى آخر. كما أن خروج السرطانات من مساكنها المؤقتة التي تذهب إليها في أثناء حدوث المد، والعودة إلى أمكنتها

السنط يفتح أوراقه نهاراً لاستقبال الشمس، حتى إذا ما أقبل الليل أغلقها؛ لذلك قام بنقل هذا النبات إلى مكان مظلم لا تدخله الشمس حتى يكون معزولاً عن أيّ عوامل بيئية لها علاقة بدورة الليل والنهار. واستمر في متابعة النبات عدة أيام متتالية. وقدّم العالم دراسته قائلاً فيها: «ليس من الضروري أبداً أن يكون النبات في الشمس أو الهواء الطلق لكي يفتح أوراقه ويغلقها، بل إن الظاهرة نفسها تحدث لو وُضع في الظلام عدة أيام متتالية؛ فهو يفتح أوراقه عندما يشرق ضوء الشمس على رغم أنه معزول تماماً عن ظلام الليل وضوء النهار؛ فهو يحسّ بالشمس من دون أن يراها. وقد أجريت مئات التجارب والدراسات العلمية المتقدمة بهدف كشف أسرار الساعة البيولوجية النباتية المثيرة، أكدت أن الساعة البيولوجية للنباتات شديدة الدقة والحساسية والتطور عن الساعة البيولوجية لدى الكائنات الحية الأخرى. كما أنها لا تتعامل مع الزمن مقيدةً قبل أن يحدث اختلال بها، وإنما مرّت بعمليات صقل وضبط امتدت مئات الملايين من السنين؛ لذلك فإنها اكتسبت درجة من الدقة تفوق أي تصوّر.

وفي أحد معامل جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس الأمريكية، أجرى العالم كارل هامر تجاربه على نبات فول الصويا بعد أن أشارت بعض الملاحظات العلمية إلى أن هذا النبات يتمتع بساعة بيولوجية شديدة التعقيد؛ فهو لا يكوّن أزهاراً إلاّ إذا تعرّض لمدد من الضوء والظلام كالتي تحدث في يوم كامل لعدة أيام متصلة وبانتظام شديد، فإذا حدث ما يخلّ بهذا التوقيت؛ كأن يتعرض النبات لومضة ضوء خاطفة في أثناء الظلام؛ فإنه يصاب بخلل ولا يكوّن أزهاراً.

وفي غابات الأرجنتين، ينمو أحد أنواع البامبو له ساعة بيولوجية عجيبة، فإذا نبتت بذرته، وبدأ النبات يتكوّن؛ فإنه يستمر في النمو مدة ٢٩ عاماً كاملاً، وفي العام الثلاثين تماماً، وفي شهر محدّد، تبدأ أزهاره بالتفتح؛ إذ تتكوّن بعد ذلك الثمار والزهور، وبعدها تنتهي دورة حياته ويموت. أما البذور الجديدة، فإنها تظل كاملة لا تنمو أبداً إلا بعد ثلاثين عاماً أخرى، وفي وقت محدد تماماً لا تقديم فيه ولا تأخير.

مصري في إنجلترا: حواس يرفض استعادة الآثار المسروقة

نشر موقع (محيط) تحقيقاً حول قضية فجّرها مؤخراً المواطن المصري مؤمن الدسوقي - استشاري نظم الحاسب الآلي الذي يعيش في إنجلترا - تتمثّل في اتهامه د. زاهي حواس - الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار - برفض استعادة أكثر من ١٥٠٠ قطعة أثرية، إضافةً إلى تابوتين ومومياوين معروضة في متحف شيفيلد في إنجلترا من دون اللجوء إلى القضاء.

وروى مؤمن الدسوقي القصة للموقع قائلاً: في أحد أيام العطلة الأسبوعية قادتني قدماي إلى متحف مدينة شيفيلد. تجولت في جوانب المعرض، فلم أرَ شيئاً ذا قيمة تاريخية أو فنية، إلى أن وصلت إلى الجانب الذي يعرضون فيه الآثار المصرية، فإذا أنا أمام تحفة فنية، بداخلها مومياء حقيقية، وبجانبها أخرى مثلها. فشرعت في قراءة المعلومات المدوّنة عنهما، فوجدت أنهما تعودان إلى ما قبل الميلاد بنحو ٧٠٠ عام، فشعرت برغبة أكيدة في إرجاعهما إلى مصر وطنهما الأصلي.

طلبت على الفور مقابلة مدير المتحف، وسألته: كيف دخلت هاتان المومياوان إلى بريطانيا؟ فأجابني أنها أتت هدايا. فأجبته على الفور: إنهما جثتان حقيقيتان، فهل تُهدى الجثث؟! وما كان منّي بعد ذلك إلا أن أبلغته على الفور برغبتي في عودة هذه الآثار إلى بلادي. فأعطاني أسماء بعض الجهات التي يمكن الاتصال بها بهذا الخصوص وعناوينها.

في أثناء تردّدي على المتحف لاحظت وجود مدوّنة أو دفتر بجوار موضع المومياوين يستطلع رأي الزائر في أمر ردّ هذه الآثار إلى دولها الأصلية، وروّعني تعليق لأحد الأطفال قال فيه: «هذه البلاد لم تحافظ على آثارها، فلماذا نعيدها إليهم؟!»، ثم توقيع الطفل بعدم الموافقة على إرجاع الآثار إلى بلادها الأصلية.

بدأت الاتصال بالجهات التي حدّدها لي مدير المتحف، وبعد صعوبات كثيرة واجهتني لتحديد موعد لمقابلة أول جهة، بدأنا النقاش، واستطرد القائمون على المتحف قائلين: إنهم لكي يبدؤوا النظر في طلب الاسترداد يجب أولاً الحصول على مطالبة من الجهات الرسمية المصرية باسترداد هذه الآثار، مؤكدين أن هناك عدة خطوات تلي ذلك، منها أن تؤكد مصر أن لديها متاحف لاستقبال هذه الآثار، إضافةً إلى عدة موافقات على إجراءات الاسترداد. في اليوم التالي قمت بإبلاغ السفارة بطلب القائمين على المتحف بضرورة الحصول على خطاب من الحكومة المصرية يطالب باسترداد الآثار.

طال انتظار خطاب الجانب المصري قبل أن تحضر مندوبة عن السفارة وبرفقتها مندوب عن الهيئة العامة للآثار، وقاما بجولة مع مسؤولي المتحف في مخازنه، واطّلعوا على جميع الآثار الموجودة في هذه المخازن، التي يصل عددها إلى ألف وخمسمئة قطعة. وعلى الرغم من إصراري منذ البداية على المطالبة بجميع الآثار المصرية الموجودة في مخازن هذا المتحف، إلا أنني فوجئت عند إشراكي في الاجتماع النهائي للزيارة باتفاق الطرفين - المصري والإنجليزي - على المطالبة باسترداد خمس قطع فقط، هي: تابوتان، ورأس بشرية، وكفّ آدمية، وجرّة.

وحين طالت مدة الانتظار اضطررت إلى التوجُّه إلى جهة أعلى من الشركة المالكة لمتاحف مدينة شيفيلد، ففاجأني مدير إدارة التطوير الثقافي ببلدية شيفيلد بأنه تم الاتفاق مع الجانب المصري على أن تبقى الآثار في متاحف شيفيلد، مضيفاً أن سياسة المملكة المتحدة هي ردّ الآثار إلى دولها الأصلية إذا طالبت هذه الدول بآثارها. وذكر المواطن أنه فوجئ بخطاب من د. زاهي حواس لمدير المتحف البريطاني يقول فيه: «نحن لا نسعى إلى استرداد تلك الآثار، خصوصاً أنها غادرت مصر منذ مدة بعيدة جداً، كما أنه ليس لدينا أدنى شك في أننا سنكون سعداء إن بقيت تلك القطع الأثرية لديكم تحت رعايتكم ومسؤوليتكم».

وقد أصدر المكتب الإعلامي للدكتور زاهي حواس - الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار - بياناً أكد فيه أنه «لم يتلقَّ



أيّ طلب من المتحف بشأن نيّته إعادة الآثار الموجودة لديه، وأن مسؤولي المتحف لم يبدوا أي استعداد لإعادة تلك الآثار، وأنهم طلبوا أن يقدم المجلس الأعلى للآثار ما يثبت أن هذه الآثار مسجَّلة في مصر، وخرجت بطرائق غير مشروعة، وهو ما لم نتمكَّن منه حتى الآن».

وردّ مؤمن الدسوقي في حديثه لـ(محيط) بأن ادّعاء د. حواس أن هذه الآثار تلقى الرعاية اللازمة في متحف شيفيلد هو ادّعاء كاذب لا دليل عليه؛ لأن هذه الآثار مهملة في المخازن، ومنذ مدة غير بعيدة حدث فيضان أدى إلى إغراق هذه الآثار داخل المخازن، وإلى تعرُّضها للتلف.

صدور دليل أخلاقيات المهنة للصحفيين

أصدرت مؤسسة (طومسون رويترز) مؤخراً (دليل أخلاقيات المهنة للصحفيين)، الذي يتضمَّن شرحاً مفصلاً عن دور الصحفي في المجتمع، الذي يعدّ المراقب المستقل للحكومة وقطاع الأعمال وكل المؤسسات السياسية والاجتماعية والمالية الأخرى، وهو يكشف النقاب عن الحقيقة، ويعمل على توعية المجتمع.

ويتناول الدليل موضوعات (الصحفي ومصادره، والصحفي والسلطة، والصحفي والناس، وأخلاقيات المهنة والصحافة المرئية). وضمّ الدليل صوراً التقطتها عدسات مصوّري (رويترز) في مجموعة من أهم الأحداث التي وقعت في السنوات الماضية.

يُذكر أن مؤسسة (طومسون رويترز) بدأت نشاطها عام ١٩٨٢م؛ بهدف دعم الصحفيين في الدول النامية، وهي تتبنّى قضايا ومشروعات تعليمية وإنسانية، منها: خدمة الأخبار والاتصالات الإلكترونية للجهات العاملة في مجال الإغاثة من الكوارث، ونشر التعليم وتكنولوجيا المعلومات، والدعم المالي والتدريب الصحفي من خلال منح دراسية ودورات تدريبية للصحفيين.



مواقع جديدة تنضم إلى قائمة التراث العالمي واستبعاد مدينة دريسدن

أضافت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) مواقع جديدة إلى قائمة التراث العالمي، وذلك في دول الرأس الأخضر، والصين، وألمانيا، وهولندا، وإيطاليا، والفلبين. وتضم قائمة اليونسكو ٨٧٨ موقعاً، قسِّمت إلى ١٤٧ موقعاً طبيعياً، و٦٧٩ موقعاً ثقافياً، و٢٥ موقعاً مختلطاً، تشمل ١٤٦ دولة.

ووافقت لجنة التراث العالمي على إدراج مدينة سيداده فليا التاريخية في جزر الرأس الأخضر على ساحل غرب إفريقية، المعروفة قديماً باسم ريبرا إجرانده. وتعود البلدة إلى أواخر القرن الخامس عشر، وتتضمن شواهد على الوجود الأوربي الاستعماري في إفريقية، وعلى تاريخ العبودية في القارة السمراء، فقد كانت أول مخفر أمامي للاستعمار الأوربي في المنطقة المدارية، وهذا أول موقع من هذه الجزر الإفريقية ينضم إلى قائمة التراث العالمي.



كما أصبح جبل ووتاي البوذي المقدس في الصين ضمن القائمة العالمية، وهو يضم ٥٣ ديراً، أبرزها معبد شوكسيانج الخاص بأسرة ميتج، وتماثيل طينية، إلى جانب الحائط الرئيس الشرقي لمعبد فوجوانج، ويمثِّل أعلى بناء خشبي بقي منذ أسرة تانج.

وضُمَّ إلى القائمة بحر وادن بوصفه موقعاً مشتركاً بين ألمانيا وهولندا، ومنطقة الدولوميت في جبال الألب بإيطاليا، وهي منطقة مؤلَّفة من تسع مناطق تمتد على مسافة ٢٣١ ألف هكتار بين مقاطعات برتنتينو، ودي بولزانو، وبيللونو، وبوردينوني، وأودينيزي. وتتميَّز هذه المنطقة بجمال طبيعتها، وتنوّعها الحيوي، وتقع أعلى قمة في هذه المنطقة، وهي كتلة جليدية، على ارتفاع ٣٣٤٣ متراً، إلى جانب ممر (ريو ديلي فولي) الذي يمتد على ثمانية كيلومترات، ويسمح بمشاهدة مطابقات جيولوجية يبلغ عمقها ٤٠٠ متر، وبعضها يعود إلى ٢٥٠ مليون سنة.

وتم إدراج متنزّه الشعب الطبيعي في توباتاها في الفلبين في القائمة العالمية، وهو يعدّ توسيعاً للمحمية الطبيعية المرجانية لشعب توباتاها، التي أدرجت على قائمة التراث العالمي في عام ١٩٩٣م؛ ليتم مضاعفة مساحة الموقع المدرج الواقع في مقاطعة بالاوان ثلاث مرات.

وقد تم استبعاد مدينة دريسدن الألمانية المدرجة مع (وادي إيلب) على لائحة التراث العالمي منذ عام ٢٠٠٤م؛ بسبب مشروع بناء جسر برّي في وسط المدينة.

هجوم على جوجل بحثاً عن جاكسون



تلقَّى (جوجل نيوز) - موقع الأخبار التابع لمحرك البحث (جوجل) - سيلاً من طلبات البحث عن معلومات عن نجم البوب الأمريكي الراحل مايكل جاكسون، إلى درجة ظنّ معها أنه يتعرض لهجوم.

وأوضحت (جوجل) أن ملايين الناس من أنحاء العالم بدؤوا بالبحث عن أخبار جاكسون مع انتشار نبأ دخوله المستشفى ووفاته. وأدى هذا الإقبال المتزايد على أخبار جاكسون إلى تعطّل الخدمة بعض الوقت، ووجد الباحثون أنفسهم أمام صفحة (نعتذر لكم). وتقول صفحة (نعتذر لكم) للمستخدمين: إن بحثهم «يبدو مماثلاً للطلبات الأوتوماتيكية الصادرة عن فيروس معلوماتي، أو أحد برامج التجسس»، وترغمهم على طبع سلسلة من الرموز المتمايلة قبل أن تشرع في تلبية طلبهم.

وعانت خدمة المدونات الصغيرة (تويتر) تباطؤاً في أدائها أيضاً، وذكرت بوابة (إيه أو إل) أن خدمتها (إيه إي إم) للرسائل الفورية توقفت نحو أربعين دقيقة. وأشارت (ياهو) إلى أن عدد زوّار خانة الأخبار على صفحتها الرئيسة ارتفع خمس مرات مقارنةً مع الأيام العادية، وأن مقالها في الصفحة الرئيسة (مايكل جاكسون أدخل إلى المستشفى على وجه السرعة) صار أكثر المقالات التي جرى تصفُّحها على الإطلاق؛ لأنه خلال عشر دقائق تلقّى نحو ٨٠٠ ألف نقرة.

مشروع ثقافي طموح للأطفال في سورية

أقامت المكتبة العمومية للأطفال في مدينة اللاذقية السورية مؤخراً معرض (مئة كتاب وكتاب) في إطار مشروع رائد على مستوى المنطقة العربية يهدف إلى تطوير أدب الأطفال في خمس دول شرق أوسطية، هي: سورية، ولبنان، ومصر، والأردن، وفلسطين. وتتبنى هذا المشروع مؤسسة مقرّها السويد، وهي (آنا ليندا)، التي تُعنى بالحوار الثقافي الأورومتوسطي، وتتعاون في ذلك مع عدد من المؤسسات الرسمية والجمعيات الأهلية ذات الصلة في الدول المعنية، التي يجري العمل في جميعها بالتزامن تحت إشراف خبراء عرب ودوليين.

قصيدة

عرس كونيّ

يوسف ذيب الحمود

دير الزور - سورية

ألم ترَ وجهَ الكونِ كيف تبسَّمَا ... يُحاكي حسانَ الحورِ ثغراً ومَبْسَمَا؟[1]

ولم أرَ حُسناً يخلبُ العينَ مثلَهُ ... لقد فاهَ حتى كادَ أنْ يتَلَعْثَمَا[2]

يتيهُ من البُشرى سروراً ونشوةً ... بذكرى نبيٍّ طابَ ذكراً ومَقْدَمَا

وتنشدُ أملاكُ السماءِ مدائحاً ... وكلُّ ملاكٍ فيه غنَّى ونغَّمَا

وقامت تراءى زُمرةً بعد زُمرةٍ ... ترجّع لحنَ الرُّوحِ معنًى مُرَنَّمَا

وجبريلُ بثَّ العطرَ بثاً بكفِّهِ ... فصارَ فضاءُ الكونِ بالعطرِ مُفْعَمَا

وينثُرُ دُراً من أساريرِ وجهِهِ ... يصوغُ لجيدِ الكونِ عقداً مُنَمْنَمَا

ورتَّلَ آياً من روائعِ وحيهِ ... وغنَّى غناءً سرمدياً وهَيَّمَا[3]

ونادى على الأكوانِ جاءَ مُحمّدٌ ... لكلِّ اعوجاجٍ في الوجودِ مُقَوِّمَا

لقد جئتَ والأقوامُ خاويةُ النُّهَى ... تقدّس أرباباً أصمَّ وأبكما

فطوَّحتَ دينَ الشركِ حتى قذفتَهُ ... بعمقٍ سحيقٍ هاوياً ومحطَّمَا

وأعلنتَ للدنيا بداءةَ عهدِهَا ... وشيَّدتَ للإسلام صرحاً ومَعْلَمَا

وألقيتَ من نورِ النُّبوة جذوةً ... فنوَّرتَ عقلاً خاب دهراً وأظْلَمَا

وجئتَ بذا القرآنِ أعظم مُعجزٍ ... ليبقى لآفاقِ الحقيقةِ مُلهِمَا

وبشَّرتَ بالنصرِ المؤزَّرِ آيةً ... وما كان وحيُ الله قولاً مُرَجَّمَا

وسُمّيتَ في أمِّ الكتابِ محمَّداً ... وحَسْبُكَ حمداً أن تكونَ مُعَلَّمَا

وبشَّرَ فيكَ الأنبياءُ كرامةً ... لتُرحَمَ فيكَ الكائناتُ وتَنْعَمَا

وفي ليلةِ الإسراءِ كُنتَ إمامَهم ... وأعلى لكَ اللهُ المقامَ وفخَّمَا

وأعــطــاك كــلُّ الأنــبــيــاءِ لــواءهــم ... وقــد أجــمــعــوا طــراً بــأن تــتــقــدَّمَــا

فــمــن ذا رقــى فــوقَ الــسَّــمــاوات غــيــرُهُ ... فــأضــحــى قــريــبــاً قــابَ قــوسـيـن مُــكْــرَمَــا

وخــاضَ بــحــارَ الــنــورِ يــســبــحُ خــاشــعــاً ... وأدرك ســــراً لا يـــــزالُ مُــكَــتَّــمَــا

وعــايــنَ فــيــضَ الله في كــلِّ مــشــهــد ... تجــلَّــتْ بــه الآيــــاتُ مــنــحــاً مُــعــظَّــمَــا

تجــنّــبــتُ مـــدحَ المــصــطــفــى مــتــهــيِّــبــاً ... وإن كــنــتُ أرجـــو أن أفـــوزَ وأَغْــنَــمَــا

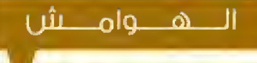
ومــا ذاك إلا مــن قُــصُــورٍ وحَــيــرةٍ ... إذا قــلــتُ مــدحــاً خــارَ شــعــري وتَمْــتَــمَــا

ويــعــجــزُ عــن نــظــم المــديــح وصــوغــه ... لــســاني ويُــبــدي الــعــجــزَ فــيــه مُــسَــلِّــمَــا

أمــــامَ نــبــيٍّ يُــعــجــزُ الــشِّــعــرَ وصــفُــهُ ... ولــطــفُ المــعــاني حــيَّــر الــعــقــل والــفَــمَــا

فــيــا مــهــبــطَ الــوحــي الــنَّــديّ شــفــاعــةً ... ويــا مــنــبــعَ الــفــضــلِ الــعــظــيــم تــرحُّــمَــا

ومــا تــبــلــغُ الأشــعــارُ فــيــكَ جــمــيــعُــهــا ... وربِّـــــي قــد صــلَّــى عــلــيــكَ وَسَــلَّــمَــا



١ - المَبسم: الثغر، والمَبْسَمُ: التبَسُّم.

٢- يتلعثم: من شدة الإعجاب والذهول.

٣- هيَّم: صوت وغنّى.



كتب

كتاب الرحلة

لابن بطوطة

نعمة الله إبراهيموف

طشقند - أوزبكستان



استخدم العلماء الروس والسوفييت المشتغلون بالتاريخ وثقافة آسيا الوسطى في أعمالهم بعض الأخبار التي جاءت في كتاب (الرحلة) لابن بطوطة، الذي يُسمَّى (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ويتعلّق بآسيا الوسطى، ومنهم ف. بارتولد، الذي لجأ إلى النص العربي، إضافةً إلى ترجمة ف. تيزينجاوزين)[1]. وقد قام بارتولد باقتباسات كثيرة من ابن بطوطة، واستشهد بأخباره ومعلوماته التي تستحق الثقة التامة.

ونجد هذا الاتجاه أيضاً في أعمال العلماء الآخرين، الذين تحدثوا عن مختلف الظواهر التاريخية، وتاريخ ثقافة آسيا الوسطى في بداية القرن الرابع عشر، فهم يذكرون كتاب (الرحلة) لابن بطوطة بوصفه مصدراً بالغ الأهمية.



وقد استخدم أي. ب. بيتروشفسكس الأخبار المنفصلة لابن بطوطة. ورأى أن كتاب رحّالة القرون الوسطى طرح معلومات غير موجودة في المصادر الأخرى. كما أكثر العالم أ. ياكوبوفسكي من الاستشهاد بكتاب رحلة ابن بطوطة.

إن كتاب (الرحلة) لابن بطوطة كان أيضاً مادةً لدراسات كثيرة عن تاريخ آسيا الوسطى، منها (الطاجيك) للعالم ب. غفوروف، و(تاريخ الري في خوارزم) للعالم يا. ج. غلاموف، و(الوثائق البخارية في القرن الرابع عشر) للعالم أو. تشيخوفيتش، وغيرهم.

كما اهتم بكتابات ابن بطوطة علماء مشاهير؛ أمثال: س. تولستوف، وم. ماسون، وأ. بيلينتسكي، وأ. سميرنوف، وغيرهم كثيرون. كما تناول هذا الموضوع علماء مهتمون بتاريخ أوزبكستان، وكازاخستان، وتركمنستان.

في حقبة ازدهار الصوفية انتشرت ظاهرة الشرك وزيارة أضرحة الأولياء، وهي المظاهر التي اقتلعها الإسلام

إن قيمة (الرحلة) لابن بطوطة تتضاعف مع كون الكتاب لا يمثّل فقط تجميع المعلومات من مختلف المصادر، بل لأن ابن بطوطة كان رحّالةً عظيماً في زمانه، انتمى إلى قائمة المكتشفين؛ مثل: ماركو بولو، وأفاناسي نيكيتين، وغيرهما. إن التعطّش إلى المعرفة، والفضول للعلم، وإتعاب النفس في رؤية ما هو غريب وعجيب من بلاد الأرض؛ كان من مآثر هذا الزمان. وقد وُجدت تلك السمات في ابن بطوطة، وفي الوقت الذي

اندفعت فيه الإنسانية إلى توسيع معارفها، وتجسيد أحلامها. ويمثّل ابن بطوطة شخصية موهوبة جداً وشائقة من الناحية النفسية، ويتميّز بالرؤى العريضة واتّساع الأفق، والدقة في نقل ملاحظاته، مع السعي إلى سرد الأعاجيب ومعجزات القديسين والأولياء التي رآها بوصفها حقيقة واقعة.

ويختلف ابن بطوطة في وصفه عن الآخرين من المؤلفين العرب في القرون الوسطى؛ فهو لا يقلق من تنوّع العلوم، ولا يتحدث عن ذلك؛ إذ يعدّ كتاب (الرحلة) قصة حية لشاهد

ابن بطوطة شخصية موهوبة جداً وشائقة من الناحية النفسية، ويتميز بالرؤى العريضة واتساع الأفق، والدقة في نقل ملاحظاته

أسواق كهنة أوركنج في خوارزم

عليها. وهو لا يورد معلومات جغرافية صمّاء للأمكنة التي زارها، بل يحكي عنها ببساطة، ويتحدث كيف انتقل من مدينة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر (على سبيل المثال: من ساراي بيركي إلى خوارزم، ومنها انطلق عبر آسيا الوسطى). وبوجوده في المدينة يتحدث عما رآه بأم عينيه، ويصف الناس الذين التقاهم، وينقل ما سمع من الناس أحياناً في هذه القرية أو تلك، ويتوقف بانطباعاته دائماً للحديث حول الحكام المحليين والمسؤولين الروحيين أو (المقدسات).

وهنا يشبه -إلى حد كبير- ماركو بولو الذي زار هذه الأمكنة من قبل، واهتم كثيراً بالمعجزات التي قام بها القديسون. أما ابن بطوطة، فكان يتحدث بالتفصيل عن مقابر الشيوخ أصحاب الكرامات والمعجزات التي وقعت أمام عينيه أو التي سمع عنها.

وبعد زيارته خوارزم، أخذ الرحالة يهتم أكثر بالعاصمة أوركنج التي أطلق عليها أيضاً خوارزم، ويتّضح من وصف ابن بطوطة أنه في النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت هذه المدينة مركزاً اقتصادياً وثقافياً كبيراً.

ويهتم ابن بطوطة كثيراً بالأسواق الخوارزمية، حيث «كان الزحام شديداً، حتى إنه لا يستطيع التحرّك إلى الأمام أو الخلف»[٢]. ونذكر هنا أن الرحالة زار مدن الشرق الأوسط؛ مثل دمشق، إلا أنه يصف عاصمة خوارزم أوركنج مثلما يصف تلك المدن الضخمة من حيث مساحتها (وهي ترتجّ بسكانها لكثرتهم، وتموج بهم موج البحر). ويمكن القول: إن مدينة أوركنج في عام ١٣٣٣م كانت مدينة كبيرة وحية يمكن مضاهاتها بالمدن الكبيرة.

ولا يسعى الرحالة إلى قول كل شيء عن خوارزم، حتى إنه لم يكن يعرف المصادر المكتوبة، وكان يهتم أكثر بالانطباعات الحية عن المدينة والأسواق، فيقول في حديثه عن المدينة: «وصلنا إلى خوارزم، وهي كبرى مدن الأتراك، وأعظمها، وأجملها، وأضخمها، لها الأسواق المليحة، والشوارع الفسيحة، والعمارة الكثيرة، والمحاسن الأثيرة، وهي ترتجّ بسكانها لكثرتهم، وتموج بهم موج البحر»[٣].

ولا يعدّد الرحالة البضائع التي رآها في المدينة، وإنما اكتفى بذكر ما وقعت عليه عيناه صيفاً عندما كانت السفن تبحر عبر جيهون؛ حيث ينقلون من ترمذ الدقيق والشعير، إلا أنه يصف ببهجة الشمام الخوارزمي الشهير المفضّل لديه. يقول ابن بطوطة: «وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً، إلا ما كان من بطيخ بخارى، ويليه بطيخ أصفهان، وقشره أخضر، وباطنه أحمر، وهو صادق الحلاوة، وفيه صلابة. ومن العجائب أنه يقدّد وييبّس في الشمس، ويجعل في القواصر، كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي، ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين»[٤].

ويتحدث ابن بطوطة تفصيلاً عن حفلات الاستقبال والمآدب التي كان ينظّمها على شرفه أمير خوارزم قوتلودومور، وقاضي المدينة، وكبار المسؤولين فيها. كما يتحدث تفصيلاً عن الأواني والسجاجيد والطعام، حتى نعرف أن كثيراً من الفواكه كانت تقدّم على المائدة، وتوضع في أطباق عراقية زجاجية، كما أن المبنى كان مزيناً بالأقمشة الحريرية ذهبيّ اللون. كما يتحدث باستفاضة أيضاً عن الهدايا التي قدّمت إليه، ويتحدث من دون خجل عن الاحترام الكبير الذي لقيه لشخصه. ويتحدث أيضاً عن العطايا التي يقدّمها أمير خوارزم والخاتون جيجا أغا؛ زوجة قاضي أوركنج، ويشيد بكرم مقدّمي العطايا. إن الهدايا المقدّمة إليه، وهو الرجل الذي يقوم بزيارة الأمكنة المقدسة، والمسلم المتعلم، وعالم القانون، كانت في رأيه تأكيداً للكرم والطيبة.

ومن وجهة النظر تلك يتحدث ابن بطوطة عن بناء المساجد في المدينة، والمدارس، والزوايا، والمستشفيات. ويهتم ابن بطوطة في كتابه أيضاً بالتفاصيل الحياتية التي تمنح حكاياته طابعاً خاصاً؛ فالقص عنده ليس بمنزلة وصف جغرافي، بل ذكريات وملاحظات طريق، تأتي في المرتبة الأولى فيها الانطباعات الذاتية التي تمنح كتاب (الرحلة) طابعاً قصصياً.

إن الاهتمام بقضية اعتناق هذا الحاكم أو ذاك الإسلام، التي يُوليها بعض باحثي ابن بطوطة اهتمامهم، لا يمكن أن نجعلها سبب تميّزه هو وحده؛ لأن كثيراً من المؤرخين، خصوصاً في المدة التي أعقبت الحقبة المنغولية، يشيرون إلى هذه النقطة. وكان من المهم للبلدان المسلمة التي فتحت على أيدي المنغول معرفة أكان حاكم الشعب المحتلّ قد اعتنق الإسلام أم لا؛ فقد كان ذلك يحدّد حجم الضرائب وحقوق السكان والقضاء، ولم يكن لهذا الأمر إلا أن ينعكس على الأدب.

وعلى سبيل المثال، يتحدث الفارسي الجوزجاني مؤلف (طبقات الناصري)، وهو معاصر للغزو المنغولي، عن أن الخان جوجي أبا بركة أمر بتربية ابنه على العادات الإسلامية، وتعليمه في خوجند القرآن على يد «أكبر العلماء في تلك المدينة»[٥]. ويشير المؤرخون إلى علاقة بركة الودودة بالمسلمين، وكرم هذا الحاكم.

ومن المميز أيضاً بالنسبة إلى المؤلفين المسلمين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الإشارة إلى الاحترام الذي كان يكنّه الحكام المنغول لشيوخ الصوفية وكبار رجالها الذين أدّوا دوراً كبيراً اقتصادياً وفكرياً بوصفهم ملاكاً للأراضي، وقادةً روحيين للفلاحين العاملين في أراضيهم. وقد صوّر ابن بطوطة شعبية شيوخ الصوفية، ونقرأ ذلك في مقتطف من كتاب (تاريخ وصّاف) الذي كتب بلغة مميزة للنثر الفارسي والعربي (الرسمي): «وقام ولي العهد أوزبك، الذي عُرف عنه إيمانه الشديد، بإرسال مجموعة من المؤمنين لأداء فريضة الحج»، ويقول: «كان كل من الخان والكان متساويين في الملبس؛ حيث ارتديا القميص. وكان هناك في جيش أوزبك الجناحان؛ الميمنة والميسرة، وطليعة المنقلة، والكيتشا. وكان هناك ساراي قوتلوغو (أخا) قوتلودمور، ومن أجل إتمام الحج خلع عن رأسه تاج السلطنة، ووضع رأسه

قيمة (الرحلة) لابن بطوطة تتضاعف مع كون الكتاب لا يمثل فقط تجميع المعلومات من مختلف المصادر، بل لأن ابن بطوطة كان رحّالة عظيماً في زمانه



قلعة إيتشان في خوارزم

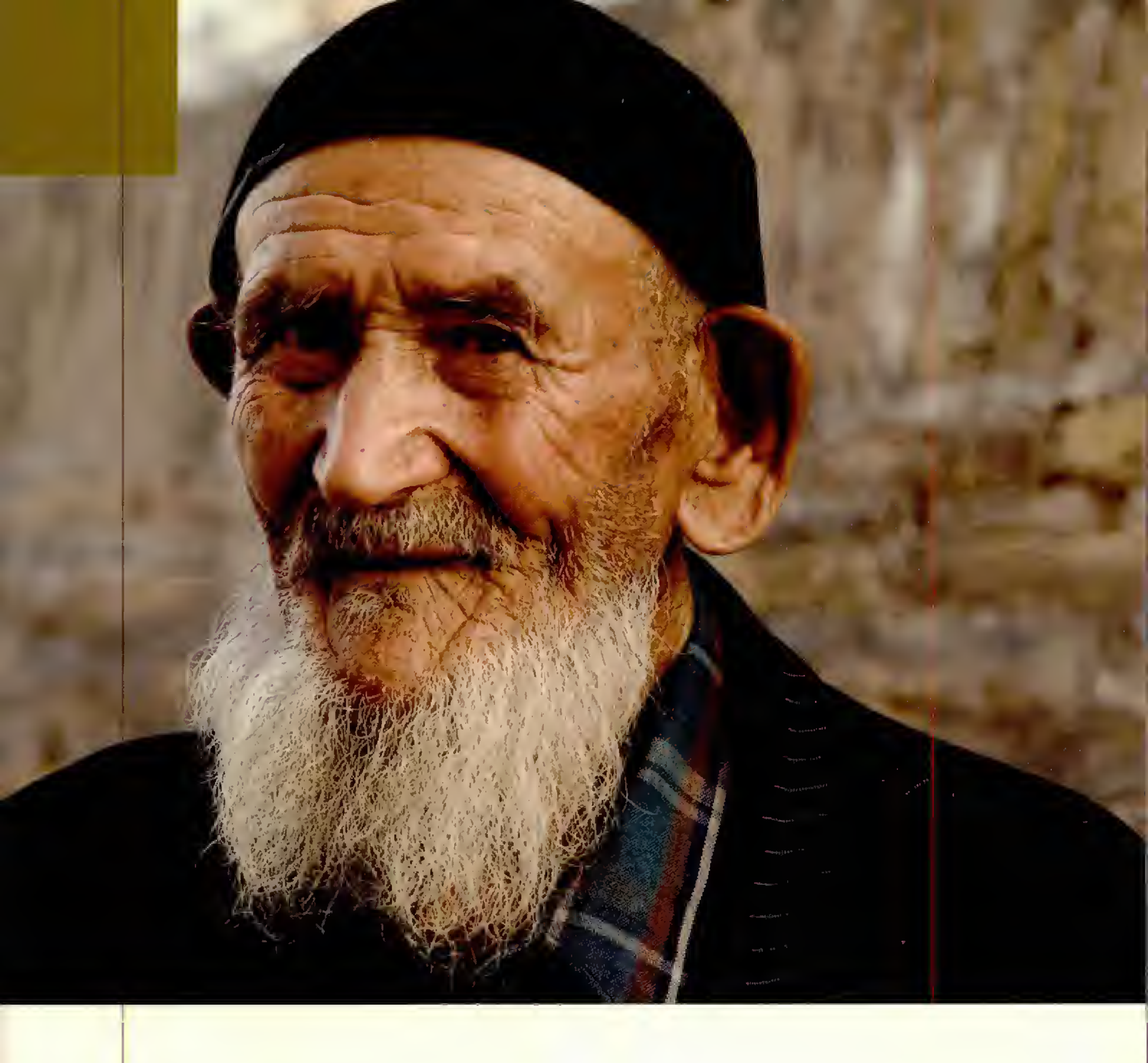
بسلام وهدوء إلى أسفل علامةً على خضوعه وتواضعه لله».

ويتّفق كثير من الأخبار التي وردت في (تاريخ وصّاف) للقرون الوسطى مع حكايات ابن بطوطة عن الاحترام الذي يتعامل به السلطان أوزبك، وطرمشيرين، وقوتلودومور، وحاكم ما وراء النهر، وأمير خوارزم، وعلاقتهم، وتوقيرهم الإمام حسام الدين الياغي في نخشب، والشيخ حاجي نظام الدين في ساراي بركة، وغيرهما من الشيوخ، خصوصاً نعمان الدين الخوارزمي[٦]. ويقول ابن بطوطة: إن السلطان أوزبك كان يزور الشيخ نعمان الدين كل جمعة، إلا أن الأخير لم يكن حتى ينهض من مكانه[٧].

وكان ابن بطوطة يتوقف كثيراً في كتابه ليحكي لنا كيفية الاستقبال الذي يلقاه هنا أو هناك، ويسرد أدلّة طريفة ومفيدة عن عدد الزوايا الصوفية في آسيا الوسطى. إن تعداد الزوايا الصوفية التي زارها ابن بطوطة في أثناء رحلته إلى آسيا الوسطى هو أمر ملحوظ جداً؛ فهو يذكر الزاوية الكبرى التي زارها على ضريح الشيخ نجم الدين حيث «أعدّوا طعاماً للمسافرين والوافدين»[٨]. ومن الشيوخ في ذلك الوقت المدرس



يرى ابن بطوطة أن طرمشيرين مسلم طيّب، ينصت إلى نصائح مرشده الروحي، ومستعدّ لإذلال نفسه في سبيل إعلاء كلمة الدين والتضحية بنفسه في سبيل الإسلام



سيف الدين بن أساب. ويذكر ابن بطوطة الشيخ جلال الدين السمرقندي؛ «واحد من كبار علماء الدين». وقد قام جلال الدين بتنظيم حفل لاستقبال ابن بطوطة. ثم يتحدث الرحالة ابن بطوطة عن «قبر العالم الإمام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الذي بُني عليه ضريح»[٩]. والحقيقة أن ابن بطوطة لا يصف القبر وصفاً تفصيلياً، إلا أنه يتحدث عن الزاوية الصوفية والوقف الذي رعاه مسؤولون روحيون قاموا على خدمة الضريح والبيت التابع له.

ثم تحدث ابن بطوطة عن المدرسة الجديدة التي تمّ إنشاؤها خارج حدود أوركنج حيث توقف للمبيت ليلةً حتى لا يدخل المدينة في أثناء الزحام (قبيل إقفال أبواب المدينة). وقد زار ابن بطوطة في المدرسة قاضي أوركنج وعدداً من الشخصيات

مهني يمارس مهنة زخرفة النحاس

الروحية، منهم شمس الدين السينجاري؛ إمام إمارة خوارزم. ثم يتحدث عن الطعام، ويصف المآدب التي نظّمتها على شرفه تورابيك خاتون - زوجة أمير خوارزم - والزاوية التي بنتها حيث تمّ فيها إطعام الوافدين والمغادرين أيضاً[١٠].

هكذا كانت الزوايا في خوارزم وحدها فقط التي تحدث عنها ابن بطوطة. ثم واصل رحلته حتى وصل إلى بخارى فتح أباد حيث توجد مقبرة سيف الدين البخارزي، وهي من أهم الأمكنة المقدسة[١١]. ويتحدث الرحالة هنا عن الزاوية التي بُنيت عند ضريح سيف الدين البخارزي، ويتم الإنفاق عليها من ريع الأوقاف الكثيرة: «إن الزاوية التي تحمل اسم الشيخ التي أقمنا فيها كبيرة جداً، ولديها أوقاف كثيرة يعيش الوافدون على ريعها».

ومن الأخبار المهمة التي أوردها ابن بطوطة أن الشيخ هناك هو حفيد سيف الدين، ويُدعى يحيى البخارزي (توفي سنة ١٣٣٥-١٣٣٦هـ)، وقد أدّى فريضة الحج. ويمكن افتراض أنه في عهد ابن بطوطة كانت هناك عائلات صوفية توارثت لقب الشيخ.

وهناك زوايا تعود إلى القرون الوسطى نزل فيها ابن بطوطة وتتبع ضريح قسام بن عباس المطالب، وتقع على أطراف سمرقند، وتعدّ أكثر الزوايا شهرةً في كل أرجاء آسيا الوسطى. يقول ابن بطوطة: «إن سكان سمرقند يذهبون ليلاً إلى هذه المقبرة أيام الاثنين والجمعة. كما يقوم التتار بزيارة المقبرة، ويقدمون كثيراً من الأضاحي والأبقار والخرفان والدراهم والدنانير، وينفق كل هذا على إطعام الزائرين، وكفالة الخدم، وصيانة المقبرة»[١٢].

ومن الأدلة على أهمية هذا المكان المقدس أن مراقب هذه المقبرة وما يحيط بها من أراضي الأوقاف التي سُجّلت تابعةً لتلك المقبرة الشهيرة كان الأمير غياث الدين محمد بن عبدالقادر بن عبدالعزيز بن يوسف، وهو ابن الخليفة العباسي المستنصر. ويقول ابن بطوطة: إن سلطان بلاد ما وراء النهر طرمشيرين قد عيّن الأمير لهذه الوظيفة بعد وصوله من العراق، وبعد أن حدّد وارث الخليفة المستنصر - قائد العالم الإسلامي كله - مراقباً للمقبرة. وقد أشار طرمشيرين إلى الدور المهم الذي أدّته بلاده في نهضة الإسلام عندما تحدى الحكام المغول المنافسين السياسيين.

وقد أقام ابن بطوطة في ترمذ في زاوية «الشيخ الكريم عزيزان، وهو أحد الأثرياء والشرفاء، ويمتلك كثيراً من الأراضي والحدائق، وقد أنفق أمواله على إطعام الحجاج»[١٣].

وإذا عُدنا إلى الكتب المعاصرة لابن بطوطة: مؤلفات العمري، فإن الأخبار تؤكد انتشار الزوايا في آسيا الوسطى. يقول العمري: «إنك ترى الناس عادةً من الأغنياء ينفقون أموالهم على إسعاد أنفسهم والتمتع، وليس على إرضاء الله سبحانه وتعالى، بل يتنافسون فيما بينهم. إلا أنه في بلاد ما وراء النهر كان الأثرياء ينفقون أموالهم بشكل أساسي على بناء المدارس، والطرق، والأوقاف في سبيل الله».

وهكذا كان العمري مثله مثل ابن بطوطة؛ يشير إلى الأثرياء، وإلى الأعمال الطيبة والتطوعية التي يقوم بها سكان ما وراء النهر، وأولها تشييد الزوايا التي تمثّل مراكز للصوفية، وهو التيار الديني الذي أدّى دوراً مهماً في تلك الحقبة.

ولا يقول ابن بطوطة شيئاً هنا عن ميثاق الصوفية الذين يقيمون داخل الزوايا وعاداتهم؛ إذ يعدّ ذلك معروفاً للجميع. إلا أننا نستطيع إحياء هذه العادات على أساس الوثائق المعاصرة لابن بطوطة التي تتحدث عن إحدى الزوايا التي زارها، وهي الزاوية التي بُنيت بجوار مقبرة الشيخ سيف الدين البخارزي[14].

وتعدّد الوثيقة كل الأشياء الضرورية الموجودة في الزاوية، وتشير إلى أهمية التزام الزهد والتواضع والتقشف، وهي العناصر الضرورية للديمقراطية الصوفية، والأخلاق القديمة. ومن الطبيعي أن يتم التزام تلك المبادئ شكلياً؛ لأن معلم الوقف يحيي البخارزي كان ثرياً جداً. تقول الوثيقة: «وبالطبع، كل ابن من مؤسسي الوقف أو أبناء عمهم كانوا يتبارون لتقديم الخدمات للفقراء، وكانوا يتجنبون ارتداء الملابس الغالية من الصوف والحرير، ولم يكن يُسمح لمن يلبس زوجته وأبناءه غالي الثياب، ويزيّن بيته بخيرات الدنيا، بتولّي إدارة الوقف»[15]. وتقول الوثيقة بوضوح: إن إدارة الوقف (أي: إدارة المقبرة والزاوية) كانت بالوراثة، وكان مديرها عادةً من أبناء مؤسّسها، ويجب أن يكون بعيداً من كل ما هو مملّ وتعبّدي، ويجب أن يتمتّع بمظهر كريم، ولا يتمسك بمفاتن الدنيا. وكان المتولّي، وهو مدير الوقف، يختاره الصوفية أنفسهم، وكان «أكثر الناس عزلةً عن العالم، وأكثرهم حكمةً وطيبةً من بين خدمة (الخاناقاه)، ومن المقيمين الدائمين في (الخاناقاه)، والدراويش المتجوّلين»[16].

ومن أكثر القصص المفصّلة في (الرحلات) ما يتعلق بآسيا الوسطى؛ إذ يصف ابن بطوطة طيبة السلطان طرمشيرين[17] وكرمه، فيصفه بأنه المدافع عن الإسلام والمسلمين، كما يورد ابن بطوطة بعض كلمات طرمشيرين: «عندما تسافر إلى بلادك احكِ كيف أن أفقر الفقراء الصوفية الفرس يمكنه أن يتحدث مع سلطان الترك»[18]. ويتحدث ابن بطوطة تفصيلاً عن طرمشيرين، إلا أنه لا يتناول التوجهات الأساسية في سياساته التي أشار إليه العُمري. يقول العمري: «لقد اعتنق ملوك هذه البلاد - أي ما وراء النهر - الإسلام من فترة قريبة، وبعد سنة ٧٢٥ هجرية، وأولهم طرمشيرين الذي آمن بالله حقاً، وبالإسلام ديناً، وأمر أمراءه وجنوده باعتناق الإسلام، فمنهم من اعتنقه إذعاناً، ومنهم من اعتنقه عن يقين ودون أمر منه. وانتشر الإسلام بينهم، وهكذا ارتفعت رايته قبل مرور عشرة أعوام، اعتنقه الجميع من البسطاء والأغنياء، وساعد على ذلك جهود الأئمة والعلماء في تلك النواحي الذين أخذوا يعون الدين الحق. وقد أصبح هؤلاء الأمراء الأتراك من أكثر الغيورين على الدين، والتزاماً بدينهم، وأقل الناس ارتكاباً للأخطاء فيما هو مسموح ومحرم»[19].

وقد استوعب طرمشيرين قوة الإسلام، وحاول اجتذاب التجار المسلمين إلى بلاده، وكان يستقبلهم باحترام، ويقيم معهم علاقات وصلات واسعة. لذا فقد استقبل طرمشيرين بسعة صدر ابن بطوطة، وأكرمه خلال إقامته. وليس من

قصص ابن بطوطة عن هيمنة الزوايا الصوفية في آسيا الوسطى تتفق مع الأخبار التي وردت في المصادر الأخرى، وتعكس الواقع الحياتي لهذه الحقبة

كان ابن بطوطة يتوقف كثيراً في كتابه ليحكي لنا كيفية الاستقبال الذي يلقاه هنا أو هناك، ويسرد أدلة طريفة ومفيدة عن عدد الزوايا

الغريب أن يصف الرحالة هذا الكرم. وكذا ابن العمري يتحدث عن هذا بموضوعية وتشويق. يكتب العمري قائلاً: «لقد أشرنا إلى شعوب تلك المنطقة وسكانها الأصليين من قدامى المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في البدايات. وعلى الرغم من عدم اعتناق بعض القياصرة الإسلام إلا أنهم احترموه، ولم يجبرهم أحد على ترك دياناتهم، وعندما انتقلت السلطة إلى طرمشيرين آمن بالإسلام، ونشره في بلده في جميع الأنحاء، والتزم قواعد الشريعة بدقة. وقد قدّم طرمشيرين الاحترام الواجب للتجار وكل مَن وفد إليه من جميع الأنحاء. وكانت طرق التجارة مغلقةً داخل بلاده للتجار من مصر وسورية، ولم يكن أحد يفكر في العبور خلالها، إلا أنه عندما وصل إلى الحكم صار التجار يسعون للسفر إلى بلاده، وأصبحت بلاده طريقاً ومعبراً. وقد حكى لي صدر بدر الدين حسن السردي التاجر عن تعامل طرمشيرين مع التجار والوافدين إليه، وعن الاحترام الذي يكنّه للرحّالة، وكرم ضيافته، وعطاياه التي كان يوزّعها على الجميع ممن أراد أن يحوز إعجابهم»[٢٠].

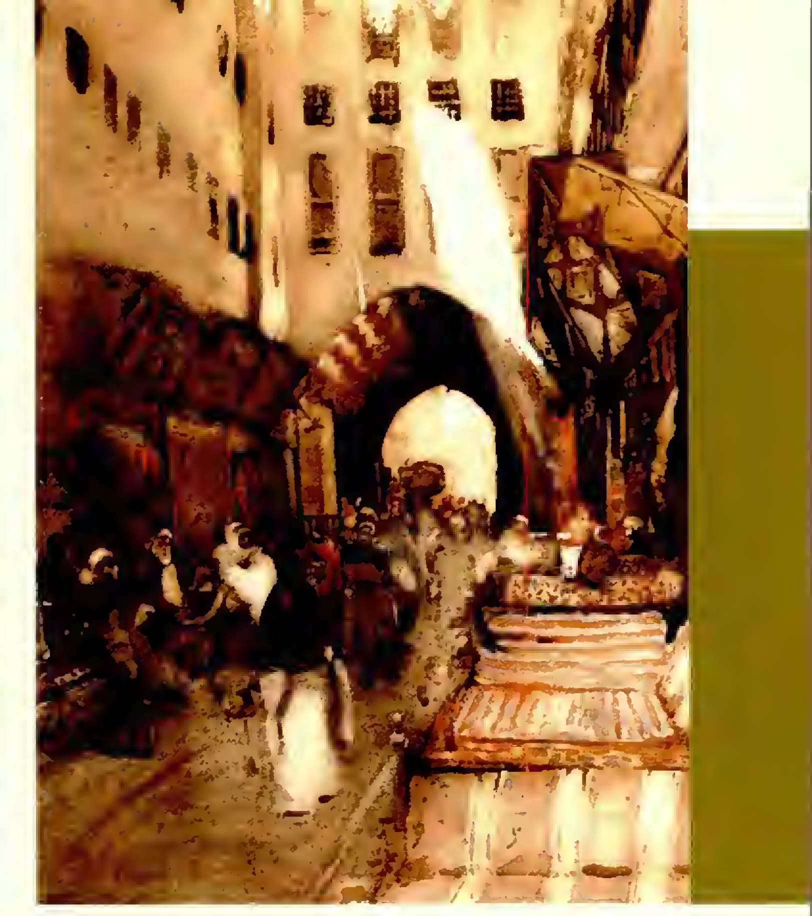
وترسم كتابات هذين الرحّالتين شخصية طرمشيرين بشكل مختلف بعض الشيء؛ فيرى ابن بطوطة أنه مسلم طيّب، ينصت إلى نصائح مرشده الروحي، ومستعدّ لإذلال نفسه في سبيل إعلاء كلمة الدين والتضحية بنفسه في سبيل الإسلام. أما ابن العمري، فقد صوّره بأنه سياسي راعٍ للتجارة والرحالة، ومهتم بأمن الطرق والدروب وازدهار التجّارة. ومن الواضح أن الصورة التي تكوّنت لدى ابن العمري كانت أكثر موضوعية على رغم كونه على خلاف ابن بطوطة لم يكن على صلة بهذا الحاكم، بل كان يكتب عن مصادر أخرى.

وفي حقبة ازدهار الصوفية انتشرت ظاهرة الشرك وزيارة أضرحة الأولياء، وهي المظاهر التي اقتلعها الإسلام. ومن الواضح من كتابات ابن بطوطة أن تقدير الأولياء في آسيا الوسطى كانت من الأشياء الواقعية والراسخة في الوعي الشعبي عند الناس. إن أضرحة الأولياء تحوّلت إلى مراكز للحج. وفي تلك الحقبة لم يكن ذلك مناقضاً للقرآن، ولم يكن يُنظر إليه على أنه مظهر من مظاهر الشرك، وهذا الأمر يؤكده انتشار هذه الظاهرة في منظومة الإسلام.

إن تغيير عبادة الأشخاص من الأولياء هو أمر متنوّع من حيث الجوهر والشكل، وكان أيّ شيخ يمكن أن يصبح مقدساً وولياً، وكذلك أيّ عالم أيضاً. وكما يكتب ابن بطوطة، فإن أيّ مدينة كانت تحوي كثيراً من الأضرحة، وكل منطقة سكنية كبيرة كانت تضم وليّها الخاص الذي يعوّل عليه سكانها.

إن ما ساعد على انتشار هذه الظاهرة هي بقايا حقبة ما قبل الإسلام؛ إذ يلاحظ التمازج بين العادات الإسلامية وعادات ما قبل الإسلامية. يقول ابن بطوطة: إن ضريح قسام بن عباس الذي يقع في سمرقند كان يُذبح على بابه العجول والخرفان التي كان يأتي بها الحجاج، وهم السكان الأصليون لمدينة سمرقند والتتار[٢١].

ويذكر ابن بطوطة مزار نجم الدين الكبير على تخوم أوركنج الذي يعدّ أحد المزارات المقدسة في آسيا الوسطى. ولم يتمكن ابن بطوطة من تعرّف الأساطير المرتبطة بهذا المكان؛ لأنه لم يكن يعرف لغة تلك المناطق. وفي الأسطورة التي وصلت إلى أيامنا هذه عناصر تعارض الإسلام، وتدلّ على أن الأسطورة قديمة جداً. تقول الأسطورة: إن كلباً عجيباً يستطيع الطيران كان يمتلكه هذا الرجل. وكان يتم عرض الأواني الحجرية التي يأكل منها الكلب للزوّار[٢٢]، وعلى الرغم من أن سكان خوارزم والحجاج الذين كانوا يزورون ضريح نجم الدين الكبير كانوا من المسلمين، إلا أنهم كانوا لا يندهشون من ذكر الكلب في الأسطورة القديمة. إن المقدسات تلك كما يرى ابن بطوطة كانت موجودة في جميع المدن والأمكنة السكنية في بلاد ما وراء النهر. ويتحدث



ابن بطوطة عن رسوخ تلك المعتقدات القديمة، ويذكر مثالاً على ذلك عادات خاصة بتسمية الأطفال عند الأتراك[٢٣].

وكانت الأضحية عادة مشتركة يؤدّيها المسلمون والمنغول عند جميع أضرحة الأولياء. وفي آسيا الوسطى، كان من المتعارف نحر الخيول والجديان والثيران عند أضرحة الأولياء، وكان يقوم بذلك كل من المسلمين والمشركين والمسلمين الجدد من التتار.

ومن المظاهر المنتشرة أيضاً: الإيمان بالمعجزات التي يقوم بها الأولياء الذين مازالوا على قيد الحياة. ويصف ابن بطوطة المدن التي رآها، ويذكر هؤلاء الأولياء وأعمالهم التي يؤمن بها كما يؤمن بها سكان تلك المدن (تنتشر هذه الظاهرة في المغرب التي قدم منها ابن بطوطة).

إن نفوذ الأولياء الذين يقومون بالمعجزات، ويعالجون من

المراجع

1. Tizengauzen V.G.. Sbornik materialov. otnosyashikhsia k istorii Zolotoy Ordy. Tome II. Izvlechenie iz persidskikh sochineniy. Moskva-Leningrad. 1941. p. 1.
2. Ibn Batoutah. Voyages. texte arabe. accompagné d'une tradiuction par C.Defrémery et B.R.Sanguinetti. Tome I-IV.. 1879-1874 ,1858-1853. T.3. p. 3.
3. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p. 3.
4. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p. 16-15.
5. Tizengauzen V.G.. Sbornik materialov. otnosyashikhsia k istorii Zolotoy Ordy. Tome II. Izvlechenie iz arabskikh sochineniy. Moskva-Leningrad. 1941. p. 16.
6. Tizengauzen V.G.. Sbornik materialov... p.87.
7. Ibn Batoutah. Voyages.... T.2. p.449
8. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p.6
9. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p.6.
10. Ibn Batoutah. Voyages....T.3. p.14.
11. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p.27
12. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p.53-52
13. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p.54.
14. Chekhovich O.D. Bukharskiye dokumenty XIV veka (Kriticheskiy tekst. perevod. vvedeniye. primechanie i ukazateli). Tashkent. 1965. p. 20-19.
15. Chekhovich O.D. Bukharskiye dokumenty. p. 177.
16. Chekhovich O.D. Bukharskiye dokumenty XIV veka ... p. 176.
17. Ibn Batoutah. Voyages.... T.3. p. 47-36 ,31.

الأمراض. ويتنبؤون بالمستقبل، كان كبيراً جداً، حتى إن الحكام المنغول والسكان المحليين كانوا يخضعون وينحنون لهم. ويصف ابن بطوطة العلاقة التي جمعت الخان الأوزبكي بالشيخ نعمان الدين الخوارزمي، فيشير إلى قوة الشيخ واستقلاليته. ولا ينسى ابن بطوطة أن يشير إلى (القدرات المقدسة) على القيام بالمعجزات: «لقد استقبلني برقة، فليجزه الله على ما فعله، وأرسل إليَّ غلاماً تركياً، وكنت شاهداً على معجزاته»[٢٤].

وكان ابن بطوطة في نهاية حكاياته عن المدن وإنجازاتها يسرد قصة تحت عنوان: (معجزة الشيخ). لا يبدو فيها أيّ معجزة من وجهة نظر الإنسان المعاصر. ويحكي ابن بطوطة معجزات الشيخ نور الدين الكهرماني، والزاهد أبي عبدالله المرشدي، والشيخ قطب الدين النيصبوري، وغيرهم من الأولياء. وهنا تتشابه (الرحلات) مع كتب (السيرة الذاتية) التي انتشرت في تلك الآونة.

وتحدث ابن بطوطة عن عادات إطلاق الأسماء لدى الترك المسلمين، وعلى الرغم من أن جمهرة الترك كان يستخدمون في تلك الحقبة أسماء عربية إسلامية (محمد، وإبراهيم، وفاطمة، وغيرها)؛ إلا أنهم احتفظوا بعاداتهم في تسمية المولود باسم شيء أو حيوان رأته الأم بعد الولادة مباشرةً. يقول ابن بطوطة: «يطلق الأتراك على المولود الجديد اسم أول من يدخل الخيمة أثناء الولادة»[٢٥]. ومع أن هذه العادة كانت منتشرة بشكل أساسي بين المشركين، إلا أن المسلمين لم يتخلوا عنها تماماً. ويقول ابن بطوطة في موضع آخر: «إن اسم ابنة سلطان الأوزبك: إيتكوجوك، وهو يعني الكلبة الصغيرة». وكما أشرنا سابقاً، فإن الأتراك كانوا يطلقون الأسماء بالمناسبة كما كان يفعل العرب[٢٦].

ويمكن أن نورد قائمة طويلة من الأسماء التي أطلقت لمناسبة، وتمّ استخدامها عوضاً من الأسماء الإسلامية. ويقارن ابن بطوطة العادات التي كانت عند العرب، وتتمثّل في إطلاق الحيوانات على القبائل: (كلب، وكلاب، وكليب، وأسد، وقريش، وغيرها).

وهكذا، يمكن الخلوص إلى أن الاهتمام بالإسلام المُلاحَظ عند ابن بطوطة هو أمر مميّز ليس بالنسبة إليه فقط، بل إلى غيره من المؤلفين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أيضاً، عندما كان موضوع الإيمان، خصوصاً اعتناق الدولة المنغولية أو عدم اعتناقها الإسلام، يؤدي دوراً سياسياً واقتصادياً مهماً.

إن قصص ابن بطوطة عن هيمنة الزوايا الصوفية في آسيا الوسطى تتفق مع الأخبار التي وردت في المصادر الأخرى، وتعكس الواقع الحياتي لهذه الحقبة. كما أن انتشار تقديس الأولياء في مختلف بلدان تلك المنطقة، وازدهار أدب السيرة الذاتية، يمثّل جانباً آخر من تلك الظاهرة. كما تمثّل قصص ابن بطوطة أهمية كبيرة، خصوصاً تلك التي تتناول تقديس الأولياء وانتشرت بين شعوب آسيا الوسطى، إلا أن الدليل على سعة رؤى ابن بطوطة يتمثّل في وتيرة السرد الموضوعية والطيبة.

18. Ibn Batoutah. Voyages…. T.3. p. 36-31.
١٩. ابن فضل الله العمري، كتاب مسالك الأبصار وممالك الأمصار، Edited by Klaus Lech. Weisbaden. 1968. P. 39-38.
٢٠. ابن فضل الله العمري، كتاب مسالك الأبصار وممالك الأمصار، Edited by Klaus Lech. Weisbaden. 1968. P. 41.
21. Ibn Batoutah. Voyages…. T.3. p. 53-52.
22. The travels of Ibn Battuta. translated from the abridged Arabic manuscript by S. Lee. L., 1829. p.322.
23. Ibn Batoutah. Voyages…. T.2. p. 196.
24. Ibn Batoutah. Voyages…. T.2. p. 49.
25. Ibn Batoutah. Voyages…. T.2. p. 15.
26. Ibn Batoutah. Voyages. texte arabe. accompagné d'une tradiuction par C.Defrémery et B.R.Sanguinetti. Tome I-IV., 1879-1874 ،1858-1853. T.2. p. 396.

يرحمك الله يا بشار

عبدالمقصود محمد عبدالمقصود

القليوبية - مصر

قصة

«همام الدقاق» بلغ الخامسة والأربعين من عمره، ولم يتزوج بعد. يعمل محاسباً في إحدى الشركات. ويعيش حياته على هواه بالطول والعرض، منفتحاً على الدنيا؛ سفراً ورحلات، يرتاد السينما والمسرح والمتاحف والمعارض الفنية. ويعدّ نفسه «دون جوان» عصره وأوانه؛ فهو حلو اللسان، دمث الخلق، أنيق وجذاب. يبدو لطيفاً مع أيّ فتاة أو سيدة يتحدث إليها؛ لذلك تعدّدت غرامياته، وأصبح زبوناً معروفاً في الكازينوهات الشهيرة. ولكن لم تسفر علاقاته النسائية عن زواج؛ فمازال حصناً منيعاً أمام تجربة الزواج، ويعتزّ جداً بحريته وتحليقه الدائم كالفراشة بين مختلف الزهور والورود. معظم المقربين منه نظروا إليه بوصفه غير مكتمل الرجولة، أو ليس له حظّ من النساء. وأحياناً كان يسمع مثل هذه التعليقات الجريئة في الجلسات الخاصة، لكنه لم يأبه، وكان يضحك ملء شدقيه معداً ذلك قصوراً في التفكير، وقلة حيلة ممن يصفه بذلك. ويصل به الاعتداد بالنفس إلى حدّ الغرور؛ إذ يعتقد أنه مُلهم، ولديه جاذبية (كاريزما) خاصة، أو سحر يستميل إليه قلوب النساء، سواء العذارى منهن أو السيدات. المهم أنه كان سعيداً جداً بحياته، وغير مهموم بما سيحدث غداً، أو حتى بعد ساعة؛ فهو حريص على أن يعيش اللحظة التي يمرّ بها بكل تركيز واستمتاع. وفجأةً هبّت الرياح بما لا تشتهي السفن. وامتدت سياسة الخصخصة إلى الشركة التي يعمل فيها همام، فصدرت أوامر وتعليمات من شأنها التضييق على الموظفين والعاملين؛ لتقليص عددهم، ودفعهم إلى التقاعد المبكر. وبين ليلة وضحاها وجد همام نفسه يحمل ملف خدمته، ويتوجّه إلى مكتب التأمينات الاجتماعية التابع له، حيث وقف ضمن طابور طويل من الموظفين لإنهاء إجراءات الحصول على المعاش. ينتظر كل منهم دوره لتقديم أوراقه ومستنداته إلى السيدة هناء المسؤولة عن التدقيق والمراجعة. وكعادته، أخذ همام هذه التطورات بصدر رحب، بينما كان قرناؤه في الطابور يتذمّرون، وتبدو على وجوههم أمارات الأسى والإحباط. كان هو يداعب خصلات شعره الغزير بأطراف أنامله، ويترنم في سرّه بنغمات لحن إحدى أغنياته المفضلة كأن حياته تسير على وتيرتها المعتادة، فهو غير مهموم بالتفكير في غده، وفي كل الأحوال يعرف كيف يقضي وقته بطريقة مبهجة. كان



الطابور طويلاً، ويمتد من منتصف الغرفة التي يتوسّطها مكتب السيدة هناء مسافة عدة أمتار حتى نهاية الطرق الضيقة أمامه. ومرّ الوقت سريعاً والطابور يتناقص فيقلّ لغط الزحام، وعبارات الأسى والمواساة التي يتبادلها من كانوا موظفين بالأمس، وأصبحوا اليوم عاطلين.

أخيراً جاء دور همام، ووجد نفسه أمام السيدة هناء التي بهرته بحسنها وجمالها الوقور. كانت في مثل عمره تقريباً، وتتّشح بالسواد، وتزاول عملها بكل هدوء وثقة. وقع بصره على وجهها الأبيض الصبوح وهي تفحص أوراق من يتقدمه في الصف. وعلى رغم مسحة الحزن التي تكسو وجهها، وتضفي عليه الجدية والوقار، إلا أن همام لم يستطع أن يرفع عينيه عنها، وظلّ يتأمل ثغرها الوردي المنمنم، وعينيها الواسعتين الكحيلتين كعيني المها، وبشرتها الناعمة النقية النضرة الناصعة البياض.

لأول مرة يضبط همام نفسه مسحوراً ومنجذباً نحو امرأة يأسره جمالها إلى هذه الدرجة. وظل تائهاً في حسنها، يتأمل ذلك الحور الجميل في عينيها، ويردّد في سرّه قول الشاعر العربي بشار بن برد:

إن العيون التي في طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

في هذه اللحظة شعر همام بنبض مشاعر ذلك الشاعر الملتاع، وحرقة أحاسيسه، وأدرك مدى صدقه في التعبير، فتنهد همام، وقال بصوت خفيض:

- يرحمك الله يا بشار.

وحين جاء الدور على همام ليقدم أوراقه إلى السيدة هناء لم ينتبه، وكان مشغولاً في تأمّل إشراقات وجهها. ولاحظت ذلك، فتغضّن وجهها بحمرة الغضب، ونهرته:

- ورقك يا أستاذ!.

اعتراه الخجل، فقدم إليها ملف أوراقه، وقال بصوت عميق مشحون بالعاطفة:

- إيه.. يرحمك الله يا بشار، يرحمك الله يا بشار!.

وهنا تبدّل غضبها، وتأملته بنظرة متفحصة؛ لعلها تتذكّر أنه كان من أقارب زوجها المرحوم «بشار» الذي توفّي منذ شهرين أو أصدقائه. ولما لم تتعرّف إليه سألته بدهشة واستغراب:

- حضرتك تعرف بشار؟!

- عزّ المعرفة يا هانم، الله يرحمه، ويحسن إليه!.

وكان جوابه على عفويته مثار تناقض مملوء بالسخرية. فبينما هو يقصد الشاعر العربي بشار بن برد ظنّته أحد معارف زوجها، ويقصد من ترحُّمه عليه أن يخبرها أنه كان يعرفه؛ لتهتمّ بأوراقه. ولما أكّد لها أنه كان يعرفه عزّ المعرفة طوت ملف أوراقه، وتناولت قصاصة ورق صغيرة دوّنت فيها رقم الوارد الخاص بملف أوراقه، وعلى ظهر القصاصة كتبت رقم هاتفها، ثم قدمت القصاصة إليه قائلةً:

- أوراقك تحتاج إلى دراسة، وبهذا الرقم يمكنك مراجعتنا بعد يومين.

- شكراً يا هانم.

قالها وهو يرجع إلى الخلف؛ ليظلّ متطلعاً إلى وجهها المشرق حتى يخرج من غرفتها. وحينما ابتعد نظر في قصاصة الورق، وأدرك أن المكتوب خلفها هو رقم هاتف، فكاد قلبه يطير من الفرحة، وظنّ السنارة قد غمزت كالمعتاد، وأن سحره قد أصاب المرأة الفاتنة، فوقعت في حبه من أول نظرة، وأخذ يمنّي نفسه بفرصة سانحة لعشق حقيقي وحب مكتمل الأركان، ولم يدرك أبداً أن هناك خطأً أو التباساً قد وقع، لكن حينما جلس في هدأة الليل وطلبها في التليفون، وبعد السلام والتحية قطعت عليه الطريق، ولم تسمح له بالتغزُّل في جمالها، وكاشفته بمشكلة الميراث بينها وبين أشقاء زوجها المرحوم بشار، وهل بإمكانه أن يقف إلى جانبها، ويساعدها على حسم هذه المشكلة لمصلحتها، فأخبرها بمعرفته محامياً قديراً سيأخذها إليه، واتفقا على موعد في اليوم التالي. وبأسلوبه المهذّب صحبها بعد لقاء المحامي إلى جلسة شاعرية على النيل. وبعدها تكرّرت اللقاءات، وصدق فيهما قول أمير الشعراء أحمد شوقي:

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

ولم يمضِ شهر حتى صارحته بحبها وقبولها الارتباط به، فتزوّجا. ودخل همام الدقاق قفص الزوجية راضياً طائعاً، وكلما تذكّر سوء الفهم أو اللبس الذي حدث في لقائه الأول مع هناء دعا للشاعر العربي بشار بن برد، وردّد: «يرحمك الله يا بشار».

قصيدة

في فمي ماء

سعد عبدالرحمن محمد البواردي

الرياض - السعودية

«في فمي ماء. وهل ينـ   ـطق من في فيه ماءٌ؟!»

آه من داءٍ أعاني   ما له عندي دواءٌ

آه من جرح بجسمي   نازفٍ.. عزَّ الشفاءُ

كل ما حولي انكسار   واندحارٌ.. وارتماءُ

وغيوم تمطر الرعـ   ـبَ.. فلا سقيا.. وماءُ

ونسور جارحات   لم تباركها سماءُ

نهشت لحمي.. ومازا   ل لها فيه احتواءُ

واهنٌ أشكو.. وهل يد   فع شكوى ضعفاءُ؟!

كيف يشكو الضيرَ جبنٌ   جبنٌ في محيط الجبناءُ؟!

ويحنا في الكمِّ كثرٌ..   وعلى الكيف غثاءُ

هل يُداوى البؤس؟!.. النا   س جميعاً بؤساءُ

كنتُ طفلاً أقرأ التا   ريخ مُضاءً وعطاءُ

وأرى الأرض فداءً   وولاءٌ.. وانتماءُ

وأرى بغداد والقد   س غطاءً ووطاءُ

وأرى الخرطوم أهلاً   وأرى مصر اجتلاءُ

وأرى حطين والير   موك رمزاً ونداءُ

وصلاح الدين.. آه   ليته فينا أفاءُ

كنتُ طفلاً أرقب الفجـ   ـرَ.. وأهواه ارتماءُ

كل فجر عشته طفـ   ـلاً.. علينا ما أضاءُ!

هل أنا الأعمى؟!.. نَعَمْ   دونما أدنى حياءُ

إن حقلاً تمّ سقيا   هُ.. سيذوي دون ماءُ





الأمل والذاكرة

نعمان السامرائي

المؤلف: تزفيتان تودورف

الناشر: مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ، الطبعة الأولى، ٤٥٤ صفحة (قطع كبير).

محتويات الكتاب: جاء الكتاب في مقدمة، وستة فصول، وخاتمة.

مَن هو المؤلّف؟ المؤلف مواطن بلغاري هاجر إلى باريس عام ١٩٦٣م ليعمل مديراً للأبحاث في المركز (الوطني) للأبحاث العلمية، عُرف بكونه ناقداً ومؤرخاً وفيلسوفاً، وقد ترجمت أغلب كتبه إلى أكثر من ٢٥ لغة، وعُرف أخيراً بأنه رسول للأدب الإنساني عام ٢٠٠٠م، وكتابه يحفل بذكر (الأدب الإنساني) وما يحمله من أهداف.

طريقة جديدة في التأليف

في كل فصل من فصول الكتاب يتحدث عن قضية، ثم ينهي الفصل بعنوان: القرن من خلال (فلان)، يدرس فيه رؤية ذلك المفكر، ثم يناقشه؛ مؤيداً أو رافضاً. ففي الفصل الأول ينهيه بـ(القرن من خلال فاسيلي غروسمان)، والثاني ينهيه بـ(القرن من خلال مارغريت بوبر – نيومان)، والثالث ينهيه بـ(القرن من منظار دافيد روسيه)، والرابع ينهيه بـ(القرن كما يراه بريمو ليفي)، والخامس ينهيه بـ(عصر رومان غازي)، والسادس ينهيه بـ(القرن من خلال جيرين تيبون)، وأخيراً الخاتمة.







وصف الكاتب القرن العشرين بأنه كان دموياً بكل معنى الكلمة

دموية القرن العشرين، مرض القرن العشرين.. يتحدث الكاتب عن الأنظمة الديمقراطية والشمولية، ومذهب العلمية والفلسفة الإنسانية. وهو يشارك المستشار بريجنسكي في أن (القرن العشرين) كان دموياً بكل معنى الكلمة، ويكفي أن البشرية خاضت فيه (حربين كونيتين)، يقدّر بريجنسكي أن من قُتل فيهما جاوز ١٧٦ مليوناً من البشر، غير الذين ماتوا جوعاً، أو غرقاً، أو ضربتهم الأمراض ولم يجدوا الدواء(١). (لقد كان القرن العشرون عصر المواجهات الكبرى والمعارك الجبارة). ولعل من بين الأسباب ما جرى في صنع السلاح؛ فالحروب قديماً كانت تستعمل السيف والرمح، ولكنها اليوم تملك صواريخ عابرة للقارات، وقنابل نووية، وطائرات، وبوارج، وقنابل (جهنم)، وأسلحة جرثومية، وغيرها، وكلها تقضي على الإنسان والحيوان والنبات. ومن هنا كانت الكارثة.

يشنّ الكاتب أكبر هجوم على النظم الشمولية، ويكرّر هجومه على كل من النازية الألمانية، والفاشية الإيطالية، والشيوعية. وينقل عن المعلّم لينين عدّه الإرهاب حقاً من ناحية (المبدأ والسياسة)، وأن الحاجة إلى (استخدامه) تجعل منه أمراً أساسياً وشرعياً(٢).

طعم القنابل لا يختلف

لو سأل إنسان: ما الفرق بين قنابل هتلر التي أمطرت الغرب وقنابل أمريكا التي ضربت اليابان أو فيتنام أو العراق أو أفغانستان؟

يجيب الكاتب: الطعم واحد، والموت واحد. نعم، الديمقراطية لا تشبه الشمولية من ناحية الآثار التي تخلفها، ومع ذلك فإن أشلاء الأطفال الذين يقعون ضحية المجازر واحدة، لا تميّز بين الشمولية والقنابل الإنسانية(٣). لقد تعدّدت الأسباب والموت واحد!!.

المعرفة والأخلاق

هل هناك ارتباط بين معارف الإنسان وأخلاقه، بعبارة أخرى: هل الإنسان الأكثر علماً ومعرفةً وتحضّراً هو الأفضل



الأنظمة الشمولية تنكر استقلالية الأفراد

ثروته، وفي حين يموت الأغنياء من التخمة يموت الملايين من البشر من الجوع والمرض والتلوث، فهل هناك من يجادل بأنه لا علاقة بين المعرفة والأخلاق؟

الأنظمة الشمولية وأحلامها والديمقراطية وأهدافها

يحاول الكاتب أن يبرز أحلام الأنظمة الشمولية بشكل عام؛ فهي تحلم بتوفير السعادة للجميع، ولكن بعد القيام بإقصاء من لا يستحقونها من الذين يناهضون السعادة، أو من الأجناس البشرية (الدنيا). وهذه الأنظمة تنكر استقلالية الأفراد وحقهم في اختيار القواعد التي سيحيون بموجبها. وتعمل على تحرير (المجتمع) بأسره من أية وصاية، بما فيها وصاية الله تعالى، وكذلك النظام الطبيعي، والأخلاق العالمية، أو حقوق الإنسان، وحدّدت القيم المتبادلة بين الأفراد هدفاً لأيّ عمل سياسي، وهي: (الحزب، والأمة، والنظام)، ولا مانع من التضحية بالفرد مقابل نصرة الثورة والمجتمع المثالي والإنسانية المطهرة[٥]. وقد أجاد د. جارودي حين صوّر النظام الشمولي، وكان إلى عهد قريب من كبار رموزه، فقال: الحزب الشيوعي يمثّل الأمة، واللجنة المركزية تمثّل الحزب، والأمين العام يمثّل اللجنة؛ فالأمة كلها يمثّلها فرد (الأمين العام).

أما النظام الديمقراطي - في نظر الكاتب - فهو بالدرجة الأولى (أنت)، بما أنها تنصّب الآخر كفاية شرعية لكل عمل، وبالدرجة الثانية استقلالية (الأنا)؛ أي: الفاعل الذي يملك الحقائق للقبول أو الصمود، وأخيراً شمولية تضم كل أعضاء الجنس البشري الذين يتمتعون بالكرامة[٦].

المؤلف عاشق للنظم الديمقراطية؛ لذا يقول فيها قصائد (غزل)، لكنه أحياناً يقول: إن الديمقراطية قد تنقد النظم الشمولية، وتعيب سلوكها، ثم لا تلبث أن تقلّدها؛ فالغرب كان حتى عام ١٩٤٢م ينتقد قتل المدنيين، ويعدّ ذلك من حرب الإبادة، ومن الأعمال البربرية، لكنه اتخذ الأسلوب

خلقاً وسلوكاً من الإنسان المتخلف؟

يجيب المؤلف بصراحة ووضوح: المعرفة لا تولّد الأخلاق، والمثقفون ليسوا بالضرورة أناساً صالحين، وهذا هو النقد الذي وجّهه (روسو) إلى العلماء وأصحاب الفكر (النيّر) من معاصريه، علماً أنه ينتمي إلى (عصر الأنوار)[٤].

فإذا عُدْنا قليلاً إلى الوراء فسنرى أوربا تستعمر القارات، وتستبيح النهب والسلب، وفعل كل شيء من أجل رفاهية الشعوب الأوربية، وعلى حساب كل الشعوب في العالم. واليوم يمتلك ٢٠٪ من أغنياء العالم ٨٠٪ من

أوربا تستعمر القارات، وتستبيح النهب والسلب، وفعل كل شيء من أجل رفاهية الشعوب الأوربية، وعلى حساب كل الشعوب في العالم

نفسه: ففي شباط/ فبراير عام ١٩٤٥م قُضي على ٤٢ ألف مدني في (دريسدن)، وفي العام نفسه قُضي على ١٠٠ ألف مدني في طوكيو. هذا غير من قُتل في هيروشيما ونجازاكي (١٨٠) ألفاً زائداً (١٤٠) ألف مدني[٧].

القتل والتعذيب والتهجير

من المعروف أن الحيوان المفترس يصطاد حيواناً ليأكله، لكنه لا يعذّبه، وإذا شبع ترك باقي الفريسة لحيوان آخر. الإنسان يعذّب أخاه ثم يقتله، ويتفنّن في تعذيبه، أو يهجّره من بيته، وأحياناً من وطنه، فكيف يمكن تفسير ذلك وتبريره؟

- نزع إنسانية الإنسان: يلاحظ تزفيتان أن أول خطوة للتغلب على الخصم تأتي بنزع (صفة الإنسانية) عنه، فيصبح حثالةً، أو حشرةً طفيليةً، أو ثعباناً، أو ثعلباً، وهكذا تصير فكرة (إفنائه) مقبولة لدى الجميع. وينقل عن (لينين) قوله: يجب إبادة أعداء الحرية، ومن دون رحمة، وشنّ حرب (إبادة) دامية ضدهم، وقمع سفلة القوم المناهضين للثورة[٨]!!.
- الإرهاب ضروري للخضوع والخنوع: يقول تزفيتان: إن الإرهاب الذي تمارسه (الدولة) هدفه ضمان (خنوع) الشعب وتبعيّته لها، وهو ليس مخالفاً للعقل: فالإرهاب أمر ضروري للقضاء على كل بوادر (الاستقلال الذاتي) لدى الأفراد. لقد سفك التيار (المعادي للحرية) كل هذه الدماء بهدف القضاء على أصحابها، وذلك هو الهدف الذي تمّ التخطيط له[٩].
- إحراق العظام: يمكن فهم الإرهاب والتعذيب والتهجير للأحياء من البشر، ولكن كيف يمكن فهم قيام الألمان عام ١٩٤٢م - خلال الحرب العالمية الثانية - بنبش القبور القديمة ثم إحراق ما فيها من عظام[١٠]؟.
- سلوك لا تعرفه الوحوش الضارية: يسجل تزفيتان نوعاً من السلوك الغريب جداً للنازيين والشيوعيين، وتعيده إسرائيل اليوم. ففي روسيا وضع (ستالين) ملايين المعارضين أو المشكوك في ولائهم داخل سجون وأغلقها بإحكام، ومنع عنهم الطعام والشراب، فلما اشتد بهم العطش راح بعضهم يلحس (بول) أخيه حتى ماتوا جميعاً. وفي ألمانيا النازية اعتقل بعض رجاله المقاومة، ومنعوا من الطعام والشراب، فراحوا يتبولون في قارورة مكسورة، ثم يبلون شفاههم. وفي إسرائيل - نقلاً عن صحيفة هآرتس - أن حرس الحدود قرب القدس راحوا يتبولون في زجاجة ويجبرون العمال الفلسطينيين على شرب البول وإلا كسّروا أيديهم وأرجلهم. ولما رفضوا فتحوا أفواه بعضهم وصبّوا فيها البول[١١].



آلام كثيرة عاشتها البشرية في القرن العشرين

عند تمزيق الدولة

اخترع الإنسان (الحكومة) لضبط تصرّف الإنسان ضد أخيه الإنسان، لكن الحكومة - وقد ملكت كل شيء - تحوّلت إلى (غول)، فراحت تعتدي: تقتل وتعذب وتهجر، وليس لهذا وجدت. ومع ذلك، فحين تسقط الدولة، ويجري تمزيقها وتفتيتها، فهنا تهيج (الغرائز)، وينطلق الأقوياء لفعل كل ما يقدرون عليه. ذات يوم انقطعت الكهرباء عن مدينة نيويورك، وخلال ليلة واحدة حدث سلب ونهب وقتل واغتصاب مما يحصل في قرن. وحين سقط الاتحاد السوفييتي، وبعده سقط النظام في العراق، حدث القتل والتعذيب والنهب والسلب والتهجير وكل الموبقات. يسجل تزفيتان: إن غياب الدولة يجعل (الظلم) ينتقل من يد شخص إلى أيدي جماعات؛ فالانهيار يكشف عن ضعف الدولة أو غيابها. وهنا تستولي (المافيا) على السلطة، يشاركها المجرمون، فيسري قانون (الأقوى)، فلا ينجو أحد حتى مؤسسات هيئة الأمم، التي هي ليست سوى تطوّر عجيب للنظام الاستعماري السابق.

فهل يستطيع (الموظفون الدوليون) أن يحلّوا مكان (البنى المنهارة) للدولة الوطنية؟ ومن حقنا هنا أن نسأل عن شرعية (التدخّل) في بلد وقع فريسة للفوضى، والشعب لن يقبل سيادة نظام جاء من الخارج، وعن طريق القوة؛ لذا فإن المفاوضات والضغوط غير المباشرة قد تجدي أكثر من (خيار الحرب)[١٢].

التدخل ضد الضعفاء وترك الأقوياء

تزفيتان ضد التدخّل؛ لأن ضرره يكون كبيراً وفادحاً، وقد سجّل أن التدخل لا يحصل إلا ضد ضعيف. أما الأقوياء فلا يتدخل أحد، ولا يردعهم أحد. يقول الكاتب: إن التدخل الأجنبي يأتي باسم (القيم العالمية)، وهي تفترض وجود شكل (للعدالة) يطبّق على الكل، لكن التدخل (عشوائي)؛ يطبّق في مكان، وتنجو منه أمكنة. فبعض البلاد تتهم بسوء التصرّف، ولكونها قوية مثل الصين، التي تنتهك حقوق الإنسان في (التبت)، ومثل احتلال الهند (كشمير)، وما تفعله روسيا في حربها ضد الشيشان، وما تفعله إسرائيل في الشعب الفلسطيني، فهنا لا يجرأ أحد أن يقترح قصف هذه الدولة؛ لأن الثمن سيكون غالياً جداً؛ لذا ينبغي وضع (شرط) على حق التدخّل حتى لا يطبّق إلا على (الدول الضعيفة)[١٣].

وأزيد أن التدخل لا يحصل ضد الأقوياء، ولا ضد الأصدقاء، فكل ما تفعله إسرائيل في نظر أمريكا هو (دفاع عن النفس)، حتى لو كان الإكراه على شرب بول العساكر.

الوضع الأسلم

لا يكتفي تزفيتان بإنكار التدخّل، بل يصف (الحل الأسلم)، الذي يتمثّل في ترك كل دولة تشرع لنفسها ما يناسبها، وليس إنشاء (دولة عالمية) للكل، وترك كل دولة تحتفظ بتشريعاتها الخاصة، وبشكل الحكم الذي يتناسب مع طبيعة شعبها، وبالديانة التي تختارها، فكل التشريعات تعتمد في سنّها على مبادئ مشتركة (للعدالة)[١٤]، وهنا نستذكر قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة: ٤٨)، فهل يقبل (الأقوياء) هذا المنطق، أو أنا قويّ فالحق معي، وأنت ضعيف فلا حق لك؟!

عندما (تتفرعن) حكومة

يقول شاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها

فكيف إذا كان الرعاة هم الذئاب

مهمة الحكومة نشر العدالة، هذه هي المهمة الكبرى، فإذا تحوّلت الحكومة إلى (فرعون) يسوم الناس شرّ

القتل جريمة في كل الأديان والأعراف، لكن حين يحدث هذا القتل في (الحرب) يصبح (مجداً)، وهنا تتغلب وجهة النظر السياسية على الشرعية

العذاب فمن ينصف المظلوم، ومن يكفّ الظالم؟ يتحدث تزفيتان بألم وغضب عما فعلته الدولة الشمولية، وإن كان لا ينسى ما تفعله الدولة الديمقراطية. يتحدث عما حصل للفلاحين (الكولاك) من قبل الحكومة الروسية؛ إذ صادرت أراضيهم أولاً، وكل من عارض يُعدم، أو يُنفى إلى سيبريا في رحلة تستغرق (٥٠) يوماً، يموت بعض الناس، ويجبر آخرون على العيش في غابة ليقتلهم الجوع والبرد. في (أوكرانيا) تُصادر الأرض، وتسلّم إلى فلاحين، وتفرض عليهم كميات كبيرة من المحصول، فإذا عجزوا عنها أرسلت الحكومة من يسلب من المساكين مؤنهم من الغذاء، فيبدأ الفلاحون بأكل الموجود عندهم، ليتحولوا إلى أكل البذور ثم البطاطا، ويأتي الدور على الماشية، فإذا حلّ الشتاء لم يجدوا شيئاً يأكلون، فأكلوا الكلاب والقطط حتى الأفاعي والنمل ودود الأرض، ومن بقي أصيب بالجنون قبل أن يموت. حاول المساكين الهرب، لكن الشرطة منعتهم، فأكل بعضهم (لحوم) بعض، فلما انتشر الموت لم يوجد من يدفن الجثث، وهنا عمّ الصمت. لقد ماتت بلدة بأكملها، كانوا يوماً ستة ملايين فلاح منتج[١٥]. ولقد اخترع الحكم السوفييتي اقتلاع شعوب ونفيها؛ مثل: شعب منغوليا، والتاتار، والشاشان، والبلغار، ثم جاء دور اليهود[١٦].



انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان أعقبت سقوط بغداد

عندما يتحول المظلوم إلى جلّاد

يكرّر شيخ الإسلام: إن الدولة الكافرة تبقى متى كانت عادلة، والدولة المسلمة تزول متى كانت ظالمة؛ فالظلم لا يدوم، وإن دام دمّر.

والغريب في الإنسان الذي ذاق طعم الظلم أن يتحول إلى جلّاد، ولعل إسرائيل خير دليل بما تصبّه على الشعب الفلسطيني من قتل وتعذيب وتهجير وإهانة. يكرر بريو ليفي، وهو ممن استعرض الكاتب حياتهم: يمكن للمظلوم أن يتحول إلى باغٍ وجائر وظالم، وكثيراً ما شاهدنا حصول مثل ذلك.

كان القرن العشرون دموياً بكل معنى الكلمة، ويكفي أن البشرية خاضت فيه حربين كونيتين

ألبير كامو يقول: لقد اقترفنا في حربنا ضد الشعب الجزائري جرائم بشعة كنا نلوم الألمان عليها. شيخ الوجودية (سارتر) يقول: في عام ١٩٥٨م، كانت طرائق التعذيب الوحشية تمارس بشكل مستمر ومنظم بحق الشعب الجزائري، والعالم كله على دراية، لكنه لا يتكلم، بل آثر الصمت المطبق.

ويعلق (الكاتب) على كل ما تقدم: نحن لا نتعلم من أخطاء الآخرين[١٧]. والسؤال: هل تعلّمت أمريكا شيئاً، خصوصاً في العراق وأفغانستان وغوانتنامو؟!

صهيوني: من العدالة ممارسة التعذيب

القتل والتعذيب والاضطهاد والإهانات، كل ذلك تمارسه إسرائيل والعالم صامت، ولكن الأقبح أن يقف رئيس (محكمة عليا)، اسمه (لاندو)، ومطّلع على ما ذاقه شعبه وشعوب العالم من ظلم، ومع ذلك يصدر قراراً بأنه من العدل ممارسة التعذيب بحق السجناء من الشعب الفلسطيني - وعددهم اليوم يتجاوز الـ(١١) ألفاً، فيهم شيوخ ونساء وصبيان - من أجل حماية الإسرائيليين ضد تصرّفاتهم السيئة، ومن أجل إحباط محاولات الاعتداء الصادرة من هؤلاء الإرهابيين[١٨]!!. فإذا كان هذا منطق رئيس المحكمة العليا، فهل يستغرب أن يسقي جنوده شاباً فلسطينياً (البول)؟!.

من عبد إلى ملك القرون

أن يقتل إنسان أخاه ظلماً، أو يصدر (فرعون) مثل ستالين أمراً بإعدام مسكين بائس، هذا يمكن تصوّره، لكن الذي يتعذّر فهمه أو قبوله أن يقوم ضحية حُكم عليه بالموت، وصادق على القرار (ستالين)، ثم يكتب (البائس) رسالة غريبة يقول فيها بعد أن يذوق ألوان العذاب: الوداع يا ملك القرون، لا تحقد عليّ. أنا عبدك البائس، اصفح عني[١٩]. فهل حصل لهذا البائس (مسخ) حتى يكتب مثل هذه الرسالة، وماذا ينتظر؟!.

القتل بين الشرعية والسياسة

هناك مثل ياباني معبّر ملخّصه: من يسرق مالاً يُسجن ويُعاقب، ومن يسرق (حكماً) يُنصب حاكماً. كم عسكري فاشل قام بليل ليقتل الحاكم ويجلس مكانه، وكم عدد المنافقين والذيول الذين أُدميت أكفهم من التصفيق، وبحّت (حناجرهم) من كثرة (الهتاف)، وحين يموت الحاكم أو يذهب فهم أول من يتخلّى عنه.

القتل جريمة بكل الأديان والأعراف، لكن حين يحدث هذا القتل في (الحرب) يصبح (مجداً)، وهنا تتغلب وجهة النظر السياسية على الشرعية كما يرى تزفيتان[٢٠].

العقل لا يخطئ

فيلسوف (القوة) نيتشه وصف العقل يوماً بأنه الصنم الأكبر، وقال: اجمع، اجمع - أي: المال- ذلك هو الشريعة والقانون.

أما المؤلف تزفيتان، فيتحدث عن (العقل) كخادم مطيع (للخير والشر)، يخدم من دون تمييز كلا الطرفين؛ فهو مطواع لهما، بل مستعدّ لخدمة أية غاية، وقد لاحظ بنجمان كونستان - وهو من درسهم المؤلف - أنه مع بداية القرن التاسع عشر تم تسليم مسيحيين إلى حيوانات (مفترسة)، وإرسال اليهود إلى المحرقة، وكل ذلك تحت شعار: (العقل لا يخطئ). كما قرّر ستالين الحكم على طبقة الفلاحين الموجودين على أكثر الأراضي خصباً في روسيا بالموت (جوعاً)[٢١]. لقد أحلّ الغرب (العقل) محلّ الله تعالى.

أما أفضل وصف للعقل، فقد جاء على لسان ابن خلدون بأنه أعظم ما خلق الله تعالى من مخلوقات، وهو مثل ميزان الذهب والمجوهرات، فإذا أريد أن يزن الحجارة الكبيرة فهل ينفع؟

كانت الحروب قديماً تستعمل السيف والرمح، ولكنها اليوم تملك صواريخ عابرة للقارات، وقنابل نووية، وطائرات، وبوارج، وقنابل (جهنم)، وأسلحة جرثومية

علاقة التحضّر بالأخلاق

هل يسهم تحضّر الإنسان في تحسّنه أخلاقياً؟

يخبرنا تزفيتان أنه منذ عهد (روسو) - في الثورة الفرنسية - لا تولّد الثقافة الفضيلة بشكل آلي؛ فسوء الأخلاق لدى الجماعات المثقفة لم يعُدّ يدهشنا. فأين تقع (الإبادة) مثلاً من الأخلاق؟[٢٢]. كان المتصوّر أن الإنسان كلما تحضّر وتثقف تحسّنت أخلاقه، ولكن الواقع لا يشجع على ذلك.

عندما تفقد الحياة معناها

ورد في السنة النبوية أن من علامات الساعة أن يقتل الإنسان أخاه، فلا يعرف القاتل لمَ قتله، ولا يعرف المقتول لمَ قُتل. كما ورد أن الإنسان يمرّ بقبر أخيه فيتمنى مكانه.

وهنا تفقد الحياة معناها وقيمتها. يتحدث الكاتب عن (أزمنة) مرّت بها النظم الشمولية، فقدت الحياة طعمها. وربما تمنّى الإنسان الموت، ودعا ربه أن يعجل به؛ لما يعانيه الإنسان من إرهاب، خصوصاً حين تمارسه الدول بكل شوق ولذة، وتسخر كل طاقاتها لذلك. فأين المهرب؟!

يقول الكاتب: أما أكداس (الضحايا) في الاتحاد السوفييتي فتأتي من منطق أن الهدف ليس سلب الحياة، وإنما تنفيذ (عقوبة) ووسيلة إرهاب، أو خسارة وحادث سخيف، وهكذا انطفأ سكان (الفولاغ) بعد ثلاثة أشهر من الإعياء والوهن والبرد والمرض من دون أن يهتم بأمرهم أحد، إنهم كميات (مهملة)، وسيتم استبدال آخرين بهم، لا بأس من موت الفلاحين جوعاً؛ لأن هذا شرط لإخضاع الأراضي (للنظام الشيوعي). وتبعية



أوكرانيا إلى روسيا، وإلحاق القرية بالمدينة. ليس المهم هو الموت، وإنما هي الحياة التي فقدت كل قيمة لها.

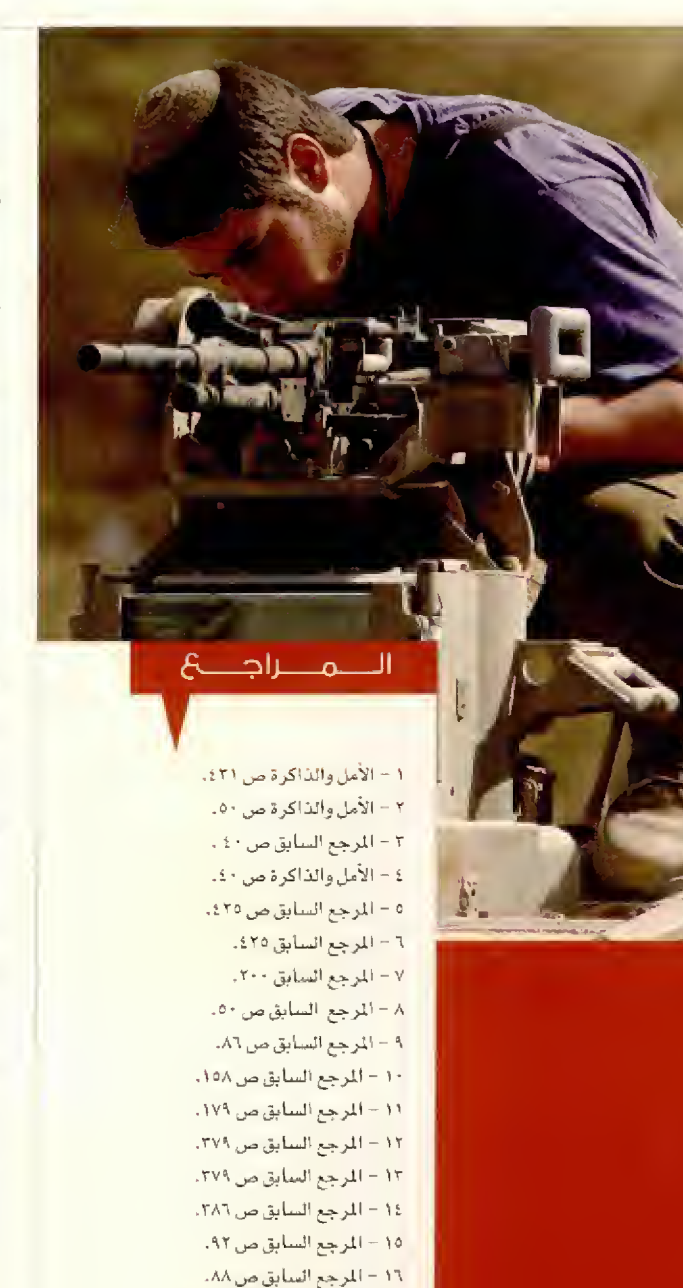
يجب التخلص من الأعداء بشكل نهائي، ويفوّض الأمر إلى كل من التاريخ والطبيعة لإنجازه[٢٣]. ألهذا اخترع الإنسان (الحكومة)، وتنازل لها عن كثير من حريته؟ وكذلك دفع لها كثيراً من أمواله؟

ماذا بعد الاستفراد

منذ ألوف السنين عرف العالم إمبراطوريات كبرى وصغرى؛ ناجحة ومخفقة، فاسدة وغير فاسدة، تتصارع بينها، تخوض الحروب، يهدّد بعضها بعضاً. أما الجديد، فتُصاب هذه الإمبراطوريات بالشيخوخة، وتصلّب الشرايين، ويموت بعضها بالسكتة القلبية أو الدماغية، ثم تنفرد قوة (واحدة) لتنادي صباح مساء: هل من مبارز؟، هل من مصارع؟ هل من معاند؟!

لقد انفردت قوة واحدة، وهي اليوم تعمل كي لا يكون لها منافس ولا شريك. يرى الكاتب أن هذه (القوة الخارقة) تشكّل وجوداً بحيث لا يمكن لها أداء دور شرطي (السلام)، وعليها الاكتفاء بـ(التدخّل) حين تتعرّض مصالحها الحياتية المشروعة للخطر؛ لذا (فالتوازن) أفضل من التوحد والاستفراد، والنظام الاقتصادي الشامل الذي نشهده لا ينبغي أن يتبعه نظام (سياسي) عالمي أوحد؛ لذا فوجود دول مستقلة أمر جوهري لاحتواء الآثار السلبية لحركة الاستفراد[٢٤].

إن كتاب (الأمل والذاكرة) جدير بالقراءة؛ لما حواه من دراسة فيها نوع من التوازن، وإن ظلّ الكاتب دائم (الغزل) بالديمقراطية، خصوصاً حين يقارنها بالنظم الشمولية؛ تلك النظم التي تشكّل وصمة عار في جبين أهلها، ومن عجب أن الغرب يعود إليها، وأن (قرود) اليمين يستأسدون، خصوصاً على الفقراء المهاجرين الذين لا يناصرهم أحد، ولا يلتفت إلى معاناتهم أحد، والشكوى إلى الله تعالى أولاً وأخيراً.



المراجع

١ - الأمل والذاكرة ص ٤٣١.
٢ - الأمل والذاكرة ص ٥٠.
٣ - المرجع السابق ص ٤٠ .
٤ - الأمل والذاكرة ص ٤٠.
٥ - المرجع السابق ص ٤٢٥.
٦ - المرجع السابق ٤٢٥.
٧ - المرجع السابق ٢٠٠.
٨ - المرجع السابق ص ٥٠.
٩ - المرجع السابق ص ٨٦.
١٠ - المرجع السابق ص ١٥٨.
١١ - المرجع السابق ص ١٧٩.
١٢ - المرجع السابق ص ٣٧٩.
١٣ - المرجع السابق ص ٣٧٩.
١٤ - المرجع السابق ص ٣٨٦.
١٥ - المرجع السابق ص ٩٢.
١٦ - المرجع السابق ص ٨٨.
١٧ - المرجع السابق ص ٢٣٠.
١٨ - المرجع السابق ص ٢٣٢.
١٩ - المرجع السابق ص ٢٧٨.
٢٠ - المرجع السابق ص ٣٦٨.
٢١ - المرجع السابق ص ١٠٨.
٢٢ - المرجع السابق ص ١١٩.
٢٣ - المرجع السابق ص ١٢٠.
٢٤ - المرجع السابق ص ٣٨٨.

أخبار

(القافلة) في عددها الجديد تتنفس تحت الماء ولا تغرق!!



جميل أن نبدأ من حيث ننتهي، وربما مع مجلة (القافلة) تظلّ النهاية مفتوحة حتى البدء بعدد آخر. وفي هذا العدد أبحر فريق (القافلة) هذه المرة في الحديث عن البحر: هذا المستحيل الأزرق، وعن موائله الغافية على صفحاته، وأحاديث المسافرين عبر عبابه، والسفن السائرة على غير ما تشتهي. البحر بكل أمواجه بالشعر تارةً، وبالسينما تارةً أخرى. وبقصص بين الحقيقة والخيال، وكثير من أسراره؛ كل هذا في ملف واحد.

في بداية الرحلة سلّط رئيس التحرير الضوء على موضوع وطني مهم في عدد (القافلة) الجديد، التي تصدر عن شركة أرامكو السعودية، ويقوم بتنفيذها المحترف السعودي، ألا وهو العمل التطوعي، ومما قاله: «إذا كان العمل التطوعي من أهم أعمال الخير التي تحضّ عليها الأديان السماوية والثقافات السامية؛ فإنه أيضاً من أهم سمات المجتمعات الإنسانية المتحضرة، التي لا تفترض أن تقوم الحكومات بكل شيء، وترى أن على من تتوافر لديهم زيادة في المال أو الوقت

علماء ألمان يعثرون على أقدم آلات ناي في التاريخ

نشر العلماء في ألمانيا تفاصيل عن آلات ناي يُعتقد أنها تعود إلى عصر الإنسان الحديث، الذي بدأ بغزو أوربا واستيطانها؛ أي: قبل ما يقرب من ٣٥ ألف عام. ويُعتقد أن هذه النايات – حسب ما أوردته بي بي سي العربية – هي أقدم آلات موسيقية عُثر عليها حتى الآن. ويقول الباحثون في موجز بحثهم الذي نُشر في مجلة (الطبيعة - Journal Nature): إن الموسيقا كانت منتشرة بين البشر على نطاق واسع في عصور ما قبل التاريخ. ويعتقدون أن الموسيقا كانت إحدى السمات السلوكية للإنسان التي تميّزه وتجعله متفوقاً على إنسان نياندرتال.

ونشر فريق البحث من جامعة توبينجين الألمانية تفاصيل عن ثلاثة نايات عُثر عليها في كهف كبير جنوب غرب ألمانيا. ويُعرف عن هذا الكهف أنه كان موقعاً يحمل دلالات على أنشطة الإنسان الأول. وكان الفريق العلمي نفسه قد كشف في مايو/ أيار الماضي عما يُعتقد أنه أول تمثال صنعه الإنسان لآلهة الحب الإغريقية (فينوس). وقد صُنعت هذه النايات من عظام جناح طير من القوارض، ويبلغ طول كل منها ٢٠سم، وفيها خمسة ثقوب للعزف.

أن يقدِّموا للمجتمع شيئاً من تلك الزيادة».

وقد سعت أرامكو إلى تحقيق التنوع الاقتصادي والتحول نحو الاستثمار بإيجاد مجتمع معرفي عبر التركيز في عدة محاور تنموية، كان أهمها الاقتصاد، والمجتمع، والتعليم، والأبحاث، والبيئة، وربما تكون تجربة أرامكو في المسؤولية الاجتماعية من أهم التجارب التي تستحق الذكر فيما حققته من بصمات واضحة على قطاعات كثيرة، بدءاً من الإسهام في تأسيس البنية التحتية، ووصولاً إلى مجالات أخرى لا تمتّ إلى النفط بصلة، ولكنها ترتبط ببنية تأسيس مجتمع يطمح إلى المعرفة الشمولية بكل أشكالها.

ويتضمن باب الطاقة والاقتصاد ما طرأ على تجارة التجزئة في العالم من خلال التجارة الإلكترونية، وذلك بالحديث عن موقع «إيباي» المعروف عالمياً، والوقوف على نمو هذا الموقع الذي يزوره ٨٠ مليون متعامل يومياً.

وفي مناخ الثقافة والأدب موضوعان: الأول يبحث في الأسباب التي تجعل بعض الموسيقا والغناء رائجاً أكثر من غيره. أما الموضوع الثاني، فهو عرض لرواية الأديب المصري محمد البساطي «جوع»، المميزة بأمرين: غوصها بشكل بالغ الحساسية في عالم الفقراء المهمشين، وصولاً إلى زخارف الإحساس المؤلم بالجوع.

أما محطة القافلة المصوَّرة، فقد كانت أكثر ديناميكية وحيوية من خلال لقطات اصطادها المصوِّر السعودي يوسف الدبيس، وكانت مصدرها حلبات الرياضة وملاعبها، وهي تؤكد أن الصورة الصحافية إذا تعزَّزت بالموهبة والإحساس بالجمال يمكنها أن ترقى إلى أعلى مستويات الصورة الفنية والأحاسيس الإنسانية.

وإن كنت لا تستطيع انتظار وصول (القافلة) إلى بريدك فبإمكانك أن تصبّر نفسك وتتصفّح محتواها المفيد من خلال موقعها الإلكتروني على الرابط www.qafilah.com حتى وصولها إلى يديك كلمةً وصورة، وبذلك تستطيع حملها معك أينما ذهبت، ومتى شئت.



كما عثر العلماء على بقايا نايات أخرى يُعتقد أنها صُنعت من عظام حيوانات الماموث الضخمة المنقرضة.

ويقول البروفيسور نيكولاس كونارد من الجامعة نفسها: إن العثور على هذه الآلات الموسيقية يعني أن الموسيقا كانت أمراً شائعاً بين البشر قبل ما يقرب من ٤٠ ألف عام عندما بدأ الإنسان الأول بغزو أنحاء القارة الأوربية واستيطانها. وأضاف: إن الموسيقا - على ما يبدو - كانت جزءاً من طقوس الحياة اليومية للإنسان الأول في تلك الحقبة. ويقول: إنها ربما كانت تُستخدم في كثير من المناسبات، منها الديني والترفيهي، كما هو حال الموسيقا في الكثير من نواحي الحياة العصرية الحالية.



إعلان الفائزين بالجوائز التشجيعية والتقديرية في مصر

أعلن فاروق حسني - وزير الثقافة المصري - في مؤتمر صحفي عُقد في المجلس الأعلى للثقافة في الخامس والعشرين من يونيو الماضي أسماء الفائزين بجوائز مبارك والتفوق عام ٢٠٠٩م، والتشجيعية والتقديرية عام ٢٠٠٨م. وبلغ إجمالي الجوائز التي تمّ حجبها ١٤ جائزةً من أصل ٣٢ جائزة في فروع جائزة الدولة التشجيعية الأربعة. وأشار فاروق حسني إلى كثرة عدد المرشحين هذا العام، خصوصاً في العلوم الاجتماعية؛ إذ بلغ عددهم ٧٢ مرشحاً. وقد ترحّم الحضور في بداية الاجتماع على روح الكاتب الراحل كامل زهيري - عضو المجلس الأعلى للثقافة - الذي حلّ محله في عضوية المجلس الروائي جمال الغيطاني.

وقد فاز الروائي بهاء طاهر بجائزة مبارك للآداب، وقيمتها ٤٠٠ ألف جنيه. وفاز بها أيضاً كل من التشكيلي محمد طه حسين في الفنون، وأستاذ الآثار علي رضوان في العلوم الاجتماعية. ونال جائزة الدولة التقديرية في مجال الآداب الدكتور جابر عصفور - مدير المركز القومي للترجمة - والروائي يوسف القعيد، وأحمد درويش - الأستاذ في دار العلوم. وفاز بالجائزة نفسها في الفنون كل من: كاتب السيناريو وحيد حامد، والموسيقي جمال سلامة، والمخرج المسرحي هاني مطاوع. وفي مجال العلوم الاجتماعية، ذهبت الجائزة نفسها إلى كل من: الكاتبة نعمات أحمد فؤاد، والمترجم قاسم عبده قاسم - أستاذ تاريخ العصر

إقبال صيني هندي على المنح الدراسية الأوروبية

استحوذ خريجو الجامعات الهندية والصينية على معظم المنح الدراسية المطروحة للحصول على درجة الماجستير في دول الاتحاد الأوربي. وقال مسؤولون في المفوضية الأوروبية إن واحدة بين كل ١٠ منح دراسية يطرحها برنامج (إيراسموس موندوس) فاز بها خريجون جامعيون صينيون للعام الدراسي ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

ويهدف هذا البرنامج إلى تعزيز العلاقات التعليمية بين دول الاتحاد الأوربي وبقية دول العالم، وجرى إعداده على نسق برنامج (إيراسموس) الخاص بالاتحاد الأوربي الذي ينظم عمليات التبادل بين الجامعات داخل التكتل. وتتيح المنح الدراسية الفرصة أمام الطلاب من خارج الاتحاد الأوربي لتلقّي دورة تعليمية مدة عام أو عامين للحصول على درجة الماجستير في اثنتين أو أكثر من جامعات الاتحاد الأوربي الذي يضم ٢٧ من الدول الأعضاء.

وجاء الطلاب الهنود في المرتبة الثانية بعد الصينيين مباشرةً على قائمة الفائزين بالمنح، فقد فاز ١١٨ طالباً هندياً بالمنح الدراسية. وجاءت البرازيل في المرتبة الثالثة بعدد ٩٠ طالباً، ثم المكسيك (٨٩ طالباً)، ثم بنغلاديش (٧٤ طالباً)، إلى جانب طلاب من ١٠٠ دولة أخرى فازوا بمنح دراسية أيضاً.

وتبلغ ميزانية البرنامج ١٩٥ مليون يورو (٢٧٥ مليون دولار) سنوياً للمدة بين عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٣م، ويتضمن البرنامج أيضاً ما يزيد على ٧٥٠٠ منحة لتبادل الطلاب قبل التخرج وبعده لمدد أقصر. ويقدم الاتحاد الأوروبي ١٥٦١ منحة لطلاب دوله الأعضاء للدراسة خارج أوربا، إلى جانب ٦٠٦٣ منحة لطلاب من خارج التكتل للدراسة بداخله.

الوسيط، والكاتب سيد القمني، وأستاذ الفلسفة حسن حنفي. ومنحت جائزة التفوق في الآداب عام ٢٠٠٩م، وقيمتها ١٠٠ ألف جنيه، إلى الدكتورة رجاء ياقوت، واسم الراحل محمد عفيفي عبد الخالق، والدكتور مسعد عويس، والدكتور السيد أمين شلبي. وذهبت جوائز الدولة التشجيعية في مجال الآداب عام ٢٠٠٨م، وقيمة كل جائزة ٥٠ ألف جنيه، إلى نجوى السيد عن ديوان (شعر العامية)، والدكتورة وفاء حسن عن (عمل موسيقي للأطفال)، وزكريا عبد الغني عن (الرواية التجريبية). وقد أثير لغط كبير بسبب وجود بعض أعضاء المجلس من المحكّمين والمرشحين في آنٍ واحد لنيل الجوائز.



رقوق قرآنية ومخطوطات نادرة في معرض بصنعاء

افتتح وزير الثقافة اليمني أبو بكر المفلحي معرضاً لنوادر الرقوق القرآنية والمخطوطات، ضم ١٠٦ صور من النوادر التي تكتنزها دار المخطوطات بالعاصمة صنعاء، ومكتبة الأحقاف في تريم بمحافظة حضرموت، وهي تشمل مجالات العلوم الدينية، والعلمية، والطب، والهندسة، والفلك، والتاريخ؛ وذلك ابتداءً من القرن الهجري الأول ما قبل التنقيط وبعده. وهناك مخطوطات بخط مؤلّفيها؛ كالإمام العلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفّى سنة ١٢٥٠هـ، إلى جانب مخطوطات لمؤلفين خطّها آخرون. ويبرز المعرض الموروث الثقافي والحضاري.

وفي المعرض صور لرقوق قرآنية تعرض الخط الكوفي المستخدم في كتابة المصاحف قبل التنقيط وبعده، وهي تمثل مراحل مختلفة من الخط الكوفي الذي ظهر في الكوفة، وانتشر في الأمصار العربية والإسلامية، ومن بينها اليمن، حيث يوجد الخط الكوفي اليماني. وينفرد مخطوط ابن المجاور الدمشقي، الذي يعود إلى القرن السابع للهجرة، ويحمل عنوان: (تاريخ المستبصر)؛ بمخططات ورسوم لمكة المكرمة قبل ٧٠٠ سنة، إلى جانب مخطط لمدينة جدة، ومخططين لمدينتي عدن وزبيد اليمنيتين.




ومن لم يذق مر التعلم ساعة تجرع كؤوس الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم حين شبابه فكبر عليه اربعا لفواته

الإسلام

والمخطوطات العربية في داغستان

حسن حاجي إبراهيم تيكايف

الرياض - السعودية

تحاول هذه المقالة الصغيرة تقديم صورة حقيقية للعالم الإسلامي عن روسيا وتاريخها. يبلغ عدد المسلمين في روسيا - كما هو معروف - أكثر من ٢٠ مليون شخص. وتعدّ جمهورية داغستان - موضوع هذه المقالة - من المناطق التي حافظت على التقاليد الإسلامية في روسيا الاتحادية؛ فهناك ٣٢ قومية أصيلة كبيرة في عدد السكان، وهي تسمى «شعوب الجبال الداغستانية». وكانت هذه القوميات المعزولة في داغستان في القرون الوسطى تتواصل بعضها مع بعض باستخدام اللغات المحلية - لغة القوموق - والدولية؛ مثل اللغة العربية، التي كانت لغة العلماء غالباً. ويتواصل حالياً سكان داغستان بعضهم مع بعض بواسطة اللغة الروسية فقط.

كانت مدينة دربند (تسمى باللغة العربية: باب الأبواب) من كبرى المدن في ذلك الوقت، وكانت هذه المدينة بوابة الدخول إلى مملكة داغستان، وكانت في بداية القرن الميلادي جزءاً من الخلافة الإسلامية. وأدى انضواء جزء من الأراضي الداغستانية فيما بعد تحت لواء الخلافة العربية، والاستقرار السياسي الداخلي في الولايات الداغستانية، ثم دخولها في مدار الحياة الاقتصادية والتجارية والثقافية للخلافة، دوراً مهماً في تطور كل مناحي الحياة.

ويؤدي موقع داغستان على الطريق البحري والتجاري والبري، الذي كان يصل جنوب شرق أوربا بالقوقاز والشرق الأدنى، دوراً في هذا الأمر. وقد أشارت هذه المصادر إلى أن مدينة دربند وصلت في تلك الحقبة إلى مستوى مدن الخلافة الكبرى من النواحي التجارية والمهنية والثقافية والزراعية، ومن ناحية التأثير في المناطق المجاورة. واحتفلت مدينة دربند منذ مدة بمرور ٥ آلاف سنة على تشييدها. وتعدّ هذه المدينة أحد المراكز المهمة في شمال القوقاز لنشر الإسلام واللغة العربية وآدابها.

تشير المصادر التاريخية إلى أن دخول الإسلام إلى داغستان بدأ مع قدوم العرب وإقامتهم فيها، فقدم بعض السكان من دمشق، وحمص، وفلسطين، وسورية، والجزيرة، وسكنوا في دربند، و«توقفت دربند في القرن العاشر عن حمل طابع المدينة العربية».

من الضروري أن نشير هنا إلى أن كل حكام داغستان المحليين بقوا في مناصبهم. ويعود أصل حكام داغستان الإقطاعيين إلى أسلاف سلالات شمخال، ومايسوم، وأوثمي، الذين ينحدرون من سلالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم. ويستند علم الأنساب إلى هذه النظرية، ولا يؤيّد العلماء كثيراً هذه النظرية. وعلى أية حال، من المستحيل إنكار حقيقة وجود العاصمة السابقة التي بقيت حتى الآن، وهي عاصمة إمارة قايتاغ الداغستانية، واسمها «قلعة قريش»، التي أنشأها بعض العرب من قبيلة قريش. وتؤكد وجود هذه النظرية المصادر التاريخية، خصوصاً المدونات



التاريخية الداغستانية. إضافةً إلى «تاريخ داغستان» الذي كتبه محمد رافي في القرن الرابع عشر؛ إذ يتحدث فيه عن العرب الذين وصلوا إلى داغستان بعد عام ٢٠٠هـ، يقول: «جلس أمير شوفان (أمير تشوبان)، وهو من سلالة النبي، على عرش غزانفار بكل فخر، وهو كان أول حاكم يحكم ولاية خيداق، وقد بنى في خيداق عدداً كبيراً من القرى والمساكن، واختار مدينة قلعة قريش التي تقع على صخرة ضخمة فوق الثغر إلى جانب النهر مقراً له». كانت هذه القلعة منذ القرن الثامن الميلادي مقراً لحكام ولاية قايتاغ لأوتسميين الإقطاعيين. وأشار إي. م. شيلينغ - المختصّ بتاريخ القوقاز المعروف - إلى أن قلعة قريش كانت «ذات موقع إستراتيجي نادر، وكانت إحدى معاقل الإسلام في نجد جبال جنوب داغستان». بُني مسجد رائع هنا في قلعة قريش في القرن الحادي عشر، وكان يتّصف مع محرابه بجمال عجيب. كانت دولة قلعة قريش أحد المراكز الأيديولوجية والسياسية القديمة لولاية خيداق، وبقيت عاصمةً لهذه المملكة الكبيرة إلى القرن السادس عشر عندما صارت مدينة (مجالس) عاصمةً للمحافظة.

انتشر الإسلام في داغستان في ظروف معقّدة؛ لأن داغستان في تلك الحقبة لم تكن وحدة إدارية موحّدة، وكان هناك على أرض داغستان من القرن السابع حتى القرن العاشر كثير من الوحدات السياسية المستقلة: سلطنة الخازار، ودولة دربند، ودولة لاكز، ودولة تابأساران، ودولة غوميك، ودولة سارير، ودولة فيلان، ودولة زره كيران (كوباتشي حالياً)، ودولة تومان، ودولة كاراخ - أوركاراخ، ودولة خيداق. وبدأت هذه العملية بالانتهاء بدءاً من القرن العاشر حتى القرن السادس عشر.

كان يعيش في القرنين العاشر والحادي عشر في داغستان، خصوصاً في مدينة دربند، عدد من السكان العرب، وأصبح هذا من العوامل المهمة التي ساعدت على دخول الأدب العربي إلى داغستان. وقد ساعد هذا العامل على انتشار الإسلام، ليس فقط في الأراضي القريبة من المدينة، بل في الأراضي الواقعة بعيداً عنها. وقد عاش العرب في تجمعات متراصّة؛ مما حافظ على الشكل العرقي لتجمعاتهم. وعلّم العرب السكان المحليين اللغة العربية، وقراءة القرآن، وفتحوا في كل مكان في داغستان المدارس التي علّموا فيها أيضاً اللغة العربية، وقراءة القرآن. ولا يوجد خلاف على تأثير القرآن في تطوّر الأدب العربي.

يقول كتاب «المخطوطة العربية في داغستان»: إن «اللغة العربية والإسلام والأدب الإسلامي كانت ثلاثة عوامل مهمة في قوة وأصالة الحياة الثقافية في العالم الإسلامي في داغستان».

أدّت داغستان دوراً مهماً في انتشار ثقافة المخطوطة العربية ضمن حدود الخلافة العربية، كما أدّت دوراً مهماً في العلاقات التجارية والاقتصادية والثقافية مع بلدان الشرق الأوسط والأدنى. وإضافةً إلى ذلك كان كثير من مواطني داغستان في تلك الحقبة يدرسون ويدرّسون في عدد من مدن الشرق الأوسط والأدنى. وقد أشار هذا الكتاب إلى «أنه كان يدور حوار تاريخي ثقافي بين مدينتي الشرق الإسلامي في القرون الوسطى: عاصمة الخلافة بغداد، والعاصمة دربند».

درّس كثير من أهالي داغستان في أعظم مدرسة إسلامية في الشرق «المدرسة النظامية». وقد وجد هذا الأمر استمراراً منطقياً في انتشار المخطوطات الثقافية، خصوصاً المخطوطات التي لها علاقة بمدرسة بغداد وما هو تابع لها. وقد ظهر أثر ذلك في مجموعة من الكتب الداغستانية. ثم تميّزت المخطوطات في داغستان فيما بعد بالعمومية والشمولية، فشملت مختلف صنوف الكتب:

- تضمّن الصنف الأول المخطوطات خارج حدود داغستان في بلدان الشرق الأوسط والأدنى، وقد وصلت إلى داغستان على مدى عصور متعددة.
- تضمّن الصنف الثاني نسخ المخطوطات من قبل كتّاب داغستانيين، فكتب حاجي حمزاتوف - العالم المشهور في روسيا - في كتابه «داغستان: العملية التاريخية الأدبية»: «كان الكُتّاب المحترفون المهرة في الخط العربي يعملون في

احتفلت مدينة دربند منذ مدة بمرور ٥ آلاف سنة على تشييدها. وتعدّ هذه المدينة أحد المراكز المهمة في شمال القوقاز لنشر الإسلام واللغة العربية وآدابها

القرون الوسطى في عدة قرى داغستانية: في قرى أقوشا، وكوباتشي، وكوموخ، وخونزاخ، وسوغراتل، وإيخراك، وباشلي، وانديري، وغيرها».

- وأخيراً الصنف الثالث، وهو المؤلفات الأصلية التي كتبها مؤلفون داغستانيون، وقد كتبت أغلبيتها باللغة العربية.

وكان يحسبون في مدة طويلة أن السلطة السوفييتية هي التي منحت الشعوب في داغستان ثقافة الكتابة، ونفى الحزب وجود أيّ تراث داغستاني مكتوب باللغة العربية. وينقسم الأدب الداغستاني متعدد القوميات المكتوب باللغتين العربية والأعجمية إلى (مدونات تاريخية، وقواميس، وكتب دينية تعليمية، وخطب إسلامية، ومذكرات).

وقد بقيت العلاقة سلبيةً تجاه كل ما هو مكتوب بالعربية إلى أن كتب م. سيدوف - العالم الداغستاني في الدراسات الشرقية - بحثه في عام ١٩٦٠م (الأدب الداغستاني باللغة العربية في القرنين ١٨-١٩)، فعرض الأدب الداغستاني المكتوب باللغة العربية على اتّساع موضوعاته وتنوعه (الفقه، والشعر، والصرف، والنحو، والطب، والرياضيات، والفلك، وعلم المنطق، والتصوّف، وعلم الأخلاق، والمكاتبة العلمية والشخصية) أمام علماء العالم. وتناول العالم في الدراسات الشرقية أعمال أكثر من مئة أديب داغستاني، فجمع مؤلفاتهم، وقام بتصنيفها ودراستها. ويرجع إليه الفضل في تنظيم رحلات الاستكشاف





انتشر الإسلام في داغستان في ظروف معقّدة؛ لأن داغستان في تلك الحقبة لم تكن وحدة إدارية موحدة

العلمي في مناطق داغستان بهدف البحث عن المخطوطات. وقد أتت هذه الرحلات ثمارها؛ إذ يحتوي مركز المخطوطات الشرقية في داغستان على أكثر من ٣ آلاف مخطوطة، تعود أقدمها إلى القرن الثاني عشر. كما تمّ جمع أكثر من ٦ آلاف وثيقة ورسالة تعود إلى علماء داغستانيين. ويتحدث عن التراث القانوني والمراسلات بين الحكام الإقطاعيين والمجتمعات الريفية. وقد تمّ نشر مجمل جهود هذا العالم مع علماء مركز داغستان للدراسات الشرقية في كتاب صدر في عام ١٩٧٧م في موسكو عن دار النشر (العلم) تحت عنوان: (كتالوج المخطوطات الشرقية). وعرف العلماء في العالم - بفضل هذا الكتاب - وجود أقدم أندر المخطوطات الشرقية في محج قلعة. وقد حصل هذا الإصدار على تقدير الأوساط الاجتماعية السوفييتية التي قامت بمنح المؤلف ميدالية ذهبية في معرض المنجزات الوطنية.

إن تعرّف مجموعة المخطوطات في داغستان يؤكد أن هناك المزيد منها، وأنها انتشرت على نطاق أوسع مما هو متصوَّر حالياً. إن هذا يؤكد التركّز الكبير وغير العادي لمخطوطات الثقافة العربية في أرض داغستان في العصور الوسطى؛ مما يدلّ على الشهرة الكبيرة للغة العربية في جمهورية داغستان في ذلك الوقت. كما تؤكد الكتب الصادرة فيما بعد مدى الانتشار الواسع للغة العربية، وأهمية الدور الذي أدّته في الحياة الاجتماعية والسياسية في داغستان.

لم يقتصر الأمر على إصدار كتب كثيرة صادرة باللغة العربية في دور النشر الداغستانية، بل تجاوز ذلك إلى إصدار منشورات دورية؛ مثل: «الصحيفة الإسلامية» ١٩١٢-١٩١٤م، و«صحيفة داغستان» ١٩١٣-١٩١٨م، التي كانت تعدّ صحيفة رائدة للمثقفين الذين يتكلمون اللغة العربية في شمال القوقاز. ويصنّف علماء التاريخ الاجتماعي والسياسي في داغستان في بداية القرن العشرين «صحيفة داغستان» أداةً أساسيةً لحركة التنوير الإسلامي في داغستان؛ فقد اهتمت بالتحليل والتوصيف الشامل والموضوعي لداغستان في ذلك الزمان، وتسليط الأضواء على الحياة السياسية في داخل البلاد وخارجها، وعلى الحياة الثقافية، والصلات الكثيرة والمتعددة للشعب الداغستاني.



حصر وثائق أرشيف القنصليات الفرنسية في اليمن المحفوظة في وزارة الخارجية الفرنسية: عدن (١٨٥٨ - ١٩٤٢م) - الحديدة (١٨٨٠ - ١٩١٤م)/ تقديم وفهرست: آن سوفي كراس. - صنعاء: المركز الوطني للأرشيف، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ٢٠٠٧م، ١٨٥ص.

يقدّم هذا الكتيب لمحة علمية مهمة عن وثائق أرشيف الوكالات القنصلية، والقنصليات المساعدة الفرنسية في اليمن، خصوصاً قنصليتي عدن والحديدة، ويقدّم للباحثين والمهتمين قوائم الوثائق التي أنشئت عبر الوكالات القنصلية والقنصليات المساعدة في كلتا المدينتين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين.

ويتضمن الكتاب كذلك ببليوجرافيا قيمة لمحتوى أرشيف القنصليتين يمكن للباحثين من خلالها الاطلاع على تاريخ تلك الحقبة المهمة من تاريخ اليمن الحديث، التي باتت في متناول المركز الوطني للوثائق من خلال مجموعة من الأفلام المصغرة، والأقراص المدمجة التي حصل عليها المركز من المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء.

كتب افتتاحية الكتيب جان لامبرت، وقدّم له علي أحمد أبو رجال، وهو من تعريب: سلال المقطري، وسعاد خضر، وعبدالفتاح القرمي.

وصدر الكتيب باللغتين العربية والفرنسية.

الداروينية المؤمنة!

قضية

جمال نصار حسين

عمان - الأردن



الإنسان.. هل هو ظاهرة غامضة؟

يحتدم النقاش هذه الأيام حول الظاهرة الإنسانية؛ فمن قائل: إن الإنسان ظهر مصادفةً، وإنه وليد حوادث عرضية لا غاية من وراء تسلسلها كانت تهدف إلى ظهوره المعجز. ومن قائل: إن الإنسان لا يمكن أن يظهر هكذا من دون مقدمات تسبق ظهوره وتمهّد له وفقاً لغائية هادفة تعهدت نشوءه وتطوره وارتقاءه، ومن قائل: إن الإنسان لا يعدو أن يكون مفردةً من مفردات هذا الوجود، خلقه الله بلمح البصر. ويعود السبب الذي سعّر هذا النقاش، وجعله يتصدر أخبار العلم هذه الأيام، إلى ما أصبح لهذا الموضوع من دور في المعترك الأيديولوجي الذي يعصف بالعالم اليوم، فما الذي جعل الناس يتذكرون داروين فجأةً من بعد شبه نسيان طوال عشرات السنين منذ أن فتر الاهتمام العام بما جاء به من أفكار ثورية تخصّ الإنسان نشأةً وارتقاءً؟ فنحن اليوم لا نكاد نُعدم خبراً يتنامى إلى مسامعنا بين الأخبار المرئية والمسموعة والمقروءة التي تظاهرت كلها على تذكيرنا بأن ظهور الإنسان على هذا الكوكب ليس باللغز اليسير حلُّه، وأن الأمر لا يزال بحاجة إلى مزيد من إعمال الفكر، والإيغال في البحث بعيداً من أية أيديولوجية تسيّر الإنسان وفق هذا الهوى أو ذاك. والعجيب أن من يُحتكم إليهم عادةً في مسائل تتعلق بظواهر هذا الوجود - رجال الدين وعلماء الدنيا - لم يعُدْ في وسعهم أن يعينوا العامة، فيأخذوا بأيديهم من الحيرة والبلبلة إلى شاطئ الأمان: فكلٌ يسعى إلى المحافظة على ما بين يديه من تراث يظنّه قد فصل القول في أمر ظهور الإنسان، فلم يعد هناك من متّسع مجال لرأي مخالف أو أيديولوجيا مناقضة. وكلٌ في الوقت ذاته، يجهد في إكساب خطابه العصري ما يجعله لا يظهر أمام العامة بمظهر المنبتّ والمتشدّد في رأيه ممن لا يُقيم وداً للآخر، ولا يسمح له بمساحة - ولو محدودة - من إبداء الرأي المخالف.

ولعل القارئ الكريم يتذكر أن داروين عاد بقوة إلى واجهة الأخبار منذ أن طرحت من جديد «نظرية النشوء والارتقاء» على طاولة البحث في الولايات المتحدة الأمريكية من بعد أن تصدّى لهذه «النظرية» منظّرو «نظرية التصميم الذكي» Theory of the intelligent design، الذين أصبح لهم الآن الصوت المجلجل هناك لأسباب لا تخفى على اللبيب!. والأمر يعنينا نحن مَن أنعم الله علينا بنبيه - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله رحمةً للعالمين بقرآن مبين فيه خبر الأولين والآخرين، ومنه يمتح المرء ما يُمكنه من التيقّن بشأن كثير من الحقائق التي ما كان له أن يقع على جزء منها ضئيل في غير هذا القرآن المعجز، فماذا بوسعنا أن ندلو به من نبأ يقين في هذا الشأن، خصوصاً أن الأمر أصبح مما لا يمكن السكوت عليه، وهو يطول صُلب معتقداتنا؟

سأحاول في هذه المقالة أن أطرح الأمر للنقاش من منظور يلتزم القرآن العظيم، ويستهدي بهديه القويم: لعلنا نصل إلى ما يُعين ويدفع بنا إلى تبيُّن سبيل الصواب ما دامت الظاهرة الإنسانية هي أكثر الظواهر في هذا الوجود غموضاً واستعصاءً على التفسير وفقاً للمنظومة المعرفية التي تسنّى للإنسان نَظْمُها. فالإنسان «ظاهرة غامضة» وإن توهّم العلم النظري المعاصر خلاف ذلك. وآيةُ هذا الغموض، المخالط للظاهرة الإنسانية فلا يفارقها، عجْزُ هذا «العلم» عن تفسير كثير جداً من مفردات هذه الظاهرة: فالعلم النظري المعاصر يقف عاجزاً حيال معظم المفردات الإنسانية التي بالإمكان الوقوع عليها ملاحظةً وتجريباً. وهذا العجز كائن في صُلب بنيته المعرفية، هذه البنية التي لم تنظر إلى الإنسان بعين تقنع بما تقع عليه، وإن كان هذا الذي تُبصره مناقضاً ما وقر في عقله من ضوابط رؤية حدّد بموجبها ما يُرى وما ينبغي الإقرار المتعسّف بالعجز عن رؤيته وإن كان مرئياً بالعين. فالعقل الإنساني عاجز عن النظر إلى ظواهر الوجود بعين تُبصرها خالصةً من أيّة شوائب تسبق الرؤية

الإعجاز المعرفي المُبين لهذا القرآن يتجلّى واضحاً في قصة خلْق الإنسان؛ لأن العلم التجريبي المعاصر ليس له إلا أن يوافق ما ورد فيها من حقائق

وتُخالطها. وهذا هو السبب في إعراض العلم النظري عن معظم مفردات «الظاهرة الإنسانية» ما دامت هذه المفردات تتناقض مع الأُسس التي شيّد عليها بُنيانه المعرفي. إن الإنسان «كائن غامض» جداً، بل هو أكثر الكائنات غموضاً على الإطلاق. وهذا الغموض لا قدرة للعلم النظري على استيعابه داخلاً من منظومته المعرفية التي يستفزّها الغموض لفرْط ولَعها بما هو موافق لمفرداتها؛ هذه المفردات تأتّى لها الحصول على صياغة بالغة الرداءة للمادة الخام التي التقطتها من هذا الواقع ولم تُعِرْها من الاهتمام إلا ما أملاه عليها حرصُها على التعامل معها وفقاً لما لا علاقة له بأصلها الواقعي هذا؛ لذا لم تنجح «الظاهرة الإنسانية» - وشأنها في هذا شأن باقي «الظواهر الغامضة» - في الاستقرار المعرفي الصائب داخل بنية العلم النظري المعاصر. ولقد جعل هذا الاستقرار الزائف لـ«الظاهرة الإنسانية» داخل المنظومة المعرفية لـ«العلم» من المُحتّم على الناظر إلى هذه الظاهرة - كما يُجليها واضحةً كلّ الوضوح الواقعُ الإنساني - ألاّ يكون بمقدوره أن يفهم هذا الذي يحدث للإنسان بوجوده مع باقي مكوّنات الوجود الذي يحيا فيه. فلماذا يعجز الإنسان عن العيش في راحة ودعة كباقي الكائنات الحية التي تُشاركه الوجود على هذه الأرض؟! ولماذا يعاني أفراد النوع الإنساني كل هذا الشقاء إذا كانوا حقاً - كما يزعم العلم النظري المعاصر - مجرد حيوانات لا تتميّز من باقي الحيوانات إلا بعقلها الحاد المتوقّد؟! وهل هو حقاً حيوان كما يريده هذا «العلم» أن يُصدِّق؟ إن الإنسان، حين يتدبّر واقعه الإنساني، عاجز عن تصديق ما يقول به العلم النظري المعاصر من أنه كان فيما مضى حيواناً، وهذا العجز ليس مبعثه بذي علاقة بما يلاحظه الإنسان من تفوّق عقلي يمتاز به على «باقي الحيوانات»: فالإنسان يعجز عن تصديق هذا الأصل الحيواني المزعوم لإيقانه استحالة نجاحه في المطابقة بين واقعه المرير هذا والواقع الحيواني: هذا الإيقان الذي بإمكان المتدبّر هذين الواقعين الخروج به إذا نظر إلى «الظاهرة الإنسانية» بعين لا تراها إلا واقعيةً، وليس كما يراها العلم النظري المعاصر، فكيف تتاشز الواقعان: الحيواني والإنساني، إذا ما كان الإنسان حقاً حيواناً ليس غير؟ هنا لابد لنا من تأكيد وجوب التفريق بين العلم النظري والعلم التجريبي على قدر تعلّق الأمر بما في وسع كل منهما أن يقوله في ماضي «الظاهرة الإنسانية» وحاضرها. فإذا كان العلم التجريبي المعاصر قادراً على أن يأتينا بكل برهان مُبين، فيجعلنا مُلزَمين بالإيمان بأن «الظاهرة الإنسانية» تضرب بجذورها عميقاً في أرض هذا الواقع وصولاً إلى ماض إنساني قديم كان فيه الإنسان لا يختلف في شيء عن باقي المفردات البيولوجية المكوّنة لهذا الواقع نشأةً وتطوراً وارتقاءً؛ فإن العلم النظري المعاصر عاجز تماماً عن أن يجعلنا نشاركه الاعتقاد بأن الإنسان اليوم هو حيوان ناطق عاقل ليس غيرا!

إن الوقائع التجريبية، ملاحظةً واختباراً، بوسعها أن تجعل منا عاجزين عن مقاومة إغراء ما تضطرّنا إليه من إيمان راسخ بالماضي الحيواني للإنسان. إلا أن العلم النظري أبداً لن يكون بمقدوره أن يجعل منا مُلزَمين الإيمان بما يتوهّمه من أباطيل بشأن «التطور الحيواني» لهذا الإنسان!. فإذا كان الإنسان حيواناً؛ بمعنى أن ماضيه كان حيوانياً، فإن هذا لا يعني أنه الآن، من بعد رحلة طويلة تطوراً وارتقاءً، حيوان منتمٍ إلى عالم الحيوان انتماء «باقي الحيوانات» إليه!. إن العلم النظري المعاصر يُغالي في هذا الإصرار من جانبه على النظر إلى الإنسان على أنه حيوان متطوّر بشهادة ماضيه الحيواني، فإذا كان العلم التجريبي المعاصر قد قطع بصحة الماضي الحيواني للإنسان: فإنه قد قطع أيضاً بعدم صحة «الحاضر» الحيواني للإنسان إن جاز هذا التعبير!. بل بالعكس، فإن الوقائع التجريبية لتؤكّد استحالة أن يكون الإنسان الآن، من بعد مضيّ مئات الملايين من السنين على ذلك الماضي الحيواني، حيواناً. وإن خُفِّف وقْع هذه الكلمة بتحسينها وجعلها ملحوقةً بكلمات مثل: عاقل، أو ناطق، أو غيرهما. إن الواقع الإنساني ليشهد باختلاف الإنسان عن الحيوان في كثير جداً من المفردات المكوّنة لكلّ من «الظاهرة الإنسانية» و«الظاهرة الحيوانية». فـ«الظاهرة الحيوانية» ليست بالغامضة كـ«الظاهرة الإنسانية» التي لا قدرة للمرء على تجاهل الغموض الشديد الذي يُميّز معظم

مفرداتها. إن الإنسان «ظاهرة غامضة» بشهادة واقعه الإنساني؛ هذا الواقع الذي يعجز العلم النظري المعاصر عن تحميله ما لا طاقة له به، وتقويله ما لا قدرة له على النطق به؛ وذلك بجعله يشهد لـ«الظاهرة الإنسانية» بانقطاع أية صلة لها بما لا يمكن الوقوع عليه في «الظاهرة الحيوانية»!. فالحيوان عاجز تمام العجز عن إعانة هذا «العلم» بما يُمكِّنه من القطع بيقين تام بأن الإنسان قد تطوّر عن أصل حيواني فحسب. إن الإنسان - بواقعه هذا - ليبرهن على أن للقصة أبعاداً أخرى لا يمكن أن تكون حيوانية على الإطلاق، وإلا فكيف نفسّر هذا الذي تتميّز به «الظاهرة الإنسانية» من تناشُز بيّن مع «الظاهرة الحيوانية»؟!. إن العلم التجريبي المعاصر ليس له إلا أن يؤكّد عدم

العلم النظري عاجز عن الإقناع بالتطور الحيواني للإنسان





جواز المضيّ قُدُماً في الظنّ الواهم بأن الإنسان الآن ما هو إلا حيوان طالما كان في أصل نشأته الغابرة حيواناً ليس غير!. لقد برهن العلم النظري المعاصر على ولوغه في الأوهام بهذا العجز من جانبه عن الإذعان لما يضطرّنا للإقرار به العلمُ التجريبي المعاصر من وجوب التفكير بـ«مداخلات» حدثت في مسار تطوّر الإنسان وارتقائه حتّمت عليه أن يصبح ما هو عليه الآن من «تفرّد بيولوجي» في هذا الوجود. فالوقائع التجريبية تشهد بوجود أصول أخرى لـ«الظاهرة الإنسانية» غير الأصل الحيواني؛ هذا الأصل الذي يريدنا «العلم» أن نصدّق معه بأوحديّته التي لا دليل يقينياً عليها. إلا أن هذه الأصول غامضة غموض «الظاهرة الإنسانية»، إن لم تكن هي السبب وراء غموضها هذا الملازم لها!. والعلم التجريبي المعاصر لا قدرة له - مع الأسف - على أن يُعيننا فيحدِّد لنا طبيعة هذه «الأصول» الأخرى. وهنا لا بد لنا من الالتجاء إلى القرآن العظيم نتدبّره لنعرف الحقيقة التي ليس لنا أن نقع عليها إلا بتدبّرنا ما حوته آياتُه البيّنات من حقائق تتعلق بنشأة الإنسان وتطوّره وارتقائه بعيداً من أية وصاية يفرضها علينا من ليس في مقدوره أن يجتاز عتبة الوهم إلى أرض الواقع والحقيقة!. إن الإعجاز المعرفي المُبين لهذا القرآن ليتجلّى واضحاً في قصة خلْق الإنسان؛ لأن العلم التجريبي المعاصر ليس له إلا أن يوافق ما ورد فيها من حقائق تشهد له بأنه حقاً كتاب إلهيّ حقيقي الصلة بالله. فالعلم التجريبي المعاصر يخالف ما يتوهّمه العلماء النظريون؛ إذ يُرجعون «الظاهرة الإنسانية» إلى تطوّر تحقق داخل عالم الحيوان بمفردات لا علاقة لها به وجوباً وحصراً؛ إذ يشهد هذا العلم بأن الإنسان «ظاهرة غامضة» بحق، وأن غموضها هذا يستدعي تدخُّل أصول أخرى أسهمت هي الأخرى في جعل الإنسان إنساناً كما نعرفه. كما أن هذا العلم بوسعه أن يُبرهن على أن هذه «الأصول» لا يمكن أن تكون من داخل عالم الحيوان كما نعرفه، وأنها لا بد أن تكون ذات صلة بـ«ظواهر أخرى» لا علاقة لها بـ«الظاهرة الحيوانية» كما نعرفها. إن تدبُّر هذه الحقائق بعين عقل سليم بوسعه أن يجعل منا واثقين كل الثقة بأن هذا العصر هو بحق العصر الذي بإمكان أهله أن يستخلصوا من القرآن العظيم كل ما من شأنه أن يُعينهم على التيقُّن من أنه كتاب الله حقاً وحقيقة، وأنه السبيل الحقيقي الوحيد ليصل بهم إليه إذا ما هم تمسّكوا بضوابطه المنهجية كما فصّلتها الشريعة الإلهية التي



وحّد الله بين خلقه بكلمة (دوابّ)

تضمّنتها آياته البيّنات طريقةً مُثلى لعبادته تعالى. وإلا فكيف تأتّى لهذا القرآن أن يصل إلى تحديد ما عجز الإنسان عن التوصّل إليه إلا بوساطة العلم التجريبي؛ هذا «العلم الحق» الذي مكّننا من الجزم بثقة ويقين بوجود «أصول» أخرى لـ«الظاهرة الإنسانية» غير أصلها الحيواني الذي زعمه العلم النظري المعاصر!. ألا يدلّ هذا التطابق المذهل على أن القرآن العظيم يخاطب عصرنا هذا بلغته؟! لنتمعّن في الأمر ملياً بتدبّرنا ما ورد في القرآن العظيم بخصوص قصة خلْق الإنسان. بدايةً، فإن القرآن العظيم يُقرّر بكل وضوح حقيقةً تتعلّق بالماضي المشترك لجميع المخلوقات الحيوانية. وهنا لا بد لنا من وقفة قصيرة لتأكيد حقيقةٌ أخرى تتعلق بالتسمية المشتركة لجميع هذه المخلوقات؛ لنتدبّر الآيتين الكريمتين الآتيتين: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨)، و﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال: ٢٢).

يتبيّن لنا جلياً بتدبّرنا ورود كلمتي (دابة) و(دوابّ) في هاتين الآيتين الكريمتين أن القرآن العظيم أوردهما في سياق الحديث عن الإنسان وباقي «المخلوقات الحيوانية»؛ هذه المخلوقات التي يوحّد بينها كونُها تمشي (تدبُّ) على الأرض. إن المرء ليعجب لمن يستهجن أن يكون الإنسان ذا ماضٍ مشترك مع باقي مَن خلق الله حيواناتٍ!. فإذا كان الله قد وحّد بين خلْقه الحيوانات بكلمة (دوابّ)، وأشرك الإنسان بقوله عن البشر: إنهم أيضاً من الدواب. وإذا كان الله قد بيّن في قرآنه الكريم تفاصيل نشأة هذا الإنسان من مادة هي مادةُ نشأة باقي مَن خلَق الله حيوانات، فلِمَ العجب إذا ما قيل: إن الإنسان والحيوان يوحّد بينهما ماضٍ مشترك؟! لقد ذكر الله في قرآنه العظيم أنه خلق كل ما في السماوات والأرض من دابة من مادة واحدة، هي الماء؛ فكل حيوانات السماوات والأرض يوحّد بينها هذا الخلْقُ من مادة واحدة مادام الله خلقها كلّها جميعاً من الماء: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥). وقد يبدو هذا «التعميم» غريباً بعض الشيء على مَن لم يسبق له أن تدبَّر ملياً الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ

إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٩)؛ فهذه الآية الكريمة تبيّن بكل جلاء ووضوح أن هناك في السماوات حياةً حيوانيةً كما على هذه الأرض. وهذا سبق معرفيّ مُبين للقرآن العظيم؛ فالإنسان لم يُسنّ له حتى هذه اللحظة أن يتثبّت من هوية «الكائنات البيولوجية الفضائية» على وجه اليقين. إلا أن اليوم الذي سوف يتسنّى فيه للإنسان التيقّن من أن هذه الكائنات لا تختلف في شيء عن الدواب على هذه الأرض آتٍ لا محالة إن شاء الله!. ولقد كشف الله في هذا القرآن عن حقيقة أخرى تخصّ الكائنات البيولوجية قاطبةً. لنتدبّر الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠). فكلّ شيء حيّ؛ نباتاً كان أم حيواناً أم إنساناً، خلقه الله من ماء. وهذا يعني أن هنالك حقاً ماضياً مشتركاً يوحّد بين جميع الكائنات الحية؛ نباتيةً كانت أم حيوانية. إن هذا «الماضي المشترك» حقيقة قرآنية لا سبيل إلى إنكارها على الإطلاق. وهذا الذي أكّده القرآن العظيم، بإرجاعه ما خلق الله من دابة ونبات إلى مادة خلق واحدة، يتّفق تمام الاتفاق مع ما ثبت لدينا تجريباً واختباراً وملاحظةً؛ فالعلم التجريبي المعاصر قد برهن - بما لا يقبل الشك - أن جميع الكائنات الحية على هذه الأرض يوحّد بينها نشوؤها المشترك من الماء. لنعُدْ إلى الإنسان، ولنقم بتدبّر بعض الآيات الكريمة التي أورد الله فيها أنه خلقه من ماء: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥)، و﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، يتّضح لنا جلياً بتدبّرنا هاتين الآيتين الكريمتين أن الله اختار الماء مادةً خلق منها الإنسان كما خلق منها باقي الكائنات الحية. إلا أن الماء الوارد ها هنا غير الوارد في الآيات الكريمة الآتية: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (السجدة: ٨)، و﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٥-٧)، و﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر: ٦٧).

فهذه الآيات الكريمة تتحدث عن ماء النطفة (المَنيّ)، وليس عن الماء كما تعرفه الكيمياء. لذا فهذا الماء المهين الدافق ليس بسابق للخلق من طين، بل لاحق له ما دام قد نشأ من بعد اكتمال الخلْقة الإنسانية من سلالة من طين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

إلا أن القرآن العظيم يذهب إلى أبعد من مجرد تأكيد هذا الأصل المائي للإنسان، و«الأصل المائي المشترك» للكائنات البيولوجية في السماوات والأرض؛ فقد ذكر الله في كتابه العزيز أنه خلق الإنسان من تراب وطين: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر: ١١)، و﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧-٩).

كيف نفهم هذا «التشارك المائي - الترابي» لتكوين مادة خلْق الإنسان؟ هنا يتجلى القرآن العظيم بإعجاز معرفي عظيم: فقد ذكر الله في القرآن الكريم تفاصيل كرونولوجية (زمانية) حدّد بموجبها البداية التي تحتّم على الإنسان أن ينطلق منها في رحلته صوب «الاكتمال الخلْقي»؛ فالإنسان لم يكتمل خِلْقةً - كما يظنّ كثيرون - بين عشية وضُحاها، بل استغرقت عملية اكتمال خلقته: بدايةً وتطوراً وارتقاءً، عدة ملايين من السنين، وهذا ما وافق القرآن العظيم عليه العلمُ التجريبي المعاصر. إن القرآن العظيم، إذ يُحدّد الخلْق من ماء بداية لـ«الرحلة الخلْقية» لهذا الإنسان، يقرّر حقيقة لا قبل لأحد بإنكارها. لقد خُلق الإنسان بدايةً من ماء ثم من طين، وذلك مادام

القرآن العظيم خلّصنا من أوهام كثيرة جداً، وعلى رأس هذه الأوهام الاعتقاد بمسؤولية الروح عن حياة الجسم الإنساني

كان الماء سابقاً للطين نشأةً وخلقاً؛ فالماء سبق ظهور الطين بملايين السنين، بل إن الماء كان الأصل الوحيد لنشأة الطين وخلقه؛ فالطين خلقه الله من ماء، وهذا هو السبب في «الأصل المائي» للإنسان «الترابي الخَلْق»؛ فالتراب الذي خُلق منه الإنسان سبق أن تمّ خلقه من ماء. لقد بدأ الله خلْق الإنسان من طين، إلا أن هذا لا يتعارض مع ما ذكره القرآن العظيم من أن الله خلق كل دابة من ماء، وأنه تعالى كان قد جعل من الماء كل شيء حي؛ فالمادة الحية لهذا الطين هي التي خلقها الله بدايةً من ماء. إن الطين هنا، أو التراب في آيات كريمة أخرى، هو ليس الطين أو التراب كما تعرفهما الكيمياء. لنتدبّر الآية الكريمة الآتية: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة: ٧).

إن الطين المعنيّ في هذه الآية الكريمة هو ليس الطين الميت الجامد الذي لا حياة فيه كما تعرفه الكيمياء مكوّناً من مركبات ميتة. والتراب المعنيّ في آيات كريمة أخرى هو أيضاً تراب حيّ يختلف عن التراب كما تعرفه الكيمياء مكوّناً من مواد ميتة؛ فالطين والتراب، اللذان خُلق منهما الإنسان، كلاهما ينبض بالحياة!. فنظرة واحدة إلى عينة واقعية من الطين أو التراب كفيلة بجعلنا نتيقّن من أن هذا الطين أو التراب ينبض بحياة تأتّت له بوجود ملايين الكائنات المجهرية، التي يتعذّر علينا رؤيتها بالعين المجردة، فيه. إذاً، فـ«التراب الحيّ» بهذا المعنى القرآني المتفق تمام الاتفاق مع الواقع كلاهما مخلوق من الماء الذي هو أصل كل شيء حي. إن القرآن العظيم يتحدث عن «تراب واقعي» مملوء بالحياة؛ إذ يتحدث عن التراب الذي خُلق منه الإنسان. والطين الذي ذكر هذا القرآن أن الإنسان قد خُلق منه هو «طين واقعي» لا وجود له بغير حياة بثّتها فيه ملايين الكائنات المجهرية الموجودة فيه. إن الطين في القرآن العظيم هو «الطين البيولوجي» لا «الطين الكيميائي» الذي لا تراه الكيمياء إلا ميتاً؛ لخلوه من أية كائنات حية ما دام هو خليطاً من مواد كيميائية ميتة فحسب. وقد يظنّ بعض الناس - من بعد هذا التقسيم العجيب إلى «طين كيميائي» و«تراب بيولوجي» - أن الماء الذي ذكر القرآن العظيم أنه مادة خلْق كل شيء حيّ هو أيضاً «ماء واقعي» لا وجود له إلا بوجود ملايين الكائنات المجهرية عالقةً سابحةً فيه. إلا أن هذا الظنّ يُخطّئه ما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود: ٧). فالماء هنا قديمٌ قدم النشأة الكونية لهذا الوجود؛ لذا فلا وجود لكائنات حية فيه بعد.

إن هذا الفيض من الحقائق التي كشف عنها النقابَ القرآنُ العظيم ينبغي أن يجعل من علماء العلم التجريبي المعاصر - على أقل تقدير - يبادرون إلى تدبُّره بعقلٍ موقنٍ بأن هذا الكتاب لا بد أن يكون إلهي الصياغة مادام قد تضمّن من المعارف ما لم يتسنَّ «لأحد غيرهم» الوقوع عليه. فكيف نجح رجل من أهل القرن السابع للميلاد في التوصل إلى حقائق كهذه؟ وكيف تأتّى له الجزم بأن الإنسان ابتدأ رحلة نشوئه من الماء ثم من التراب؟ على أي حال، فإن «الأصل الترابي» للإنسان و«أصله المائي» لا تعارُض بينهما من بعد هذا الذي تبيّن لنا بتدبّرنا القرآن العظيم؛ فالأمر متعلّق برحلة في الزمان استغرقها الإنسان منذ بداية خلْقه من ماء، ومروراً برحلة الخلْق من طين. ولكن هل هذا هو كل ما بإمكاننا الوقوع عليه من حقائق تتعلق بخلق الإنسان بتدبّرنا هذا القرآن؟ لنتدبّر الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤). ما معنى هذا الإنشاء خلقاً آخر؟ إن تتبُّع مسار تخلُّق الإنسان كما فصّلته هذه الآية الكريمة، ابتداءً بالخلق من طين، ومروراً بكَسْو العظام لحماً، بوسعه أن يجعل منا نعجب لهذا الإنشاء الإلهي للإنسان خلْقاً آخر؛ فنحن نعلم أن مسار تخلُّق الإنسان هذا يكفي للوصول إلى الإنسان البيولوجي كما نعرفه، فما الداعي - إذاً - إلى هذا الإنشاء خلقاً آخر؟ إن كل

الإنسان لم يكتمل خِلْقةً - كما يظنّ كثيرون - بين عشية وضحاها، بل استغرقت عملية اكتمال خِلقته؛ بدايةً وتطوراً وارتقاءً، عدة ملايين من السنين



أسماء الفائزين

العدد المزدوج ٣٩١ - ٣٩٢

المحرم - صفر ١٤٣٠هـ

الفائز الأول: طه عبدالمنعم طه محمد - أسيوط - مصر.

الفائز الثاني: هشام عقوني - قرارم - الجزائر.

الفائز الثالث: آمنة محمد المصري - درعا - سورية.

الفائز الرابع: فاطمة خالد حسن - الدوحة - قطر.

الفائز الخامس: علي محمد رشاد المسوري - صنعاء - اليمن.

الفائز السادس: زكريا إبراهيم العمري - إربد - الأردن.

الفائز السابع: نورة نايف محمد الربيع - الأحساء - السعودية.

الفائز الثامن: محمد السعيدي - جندوبة - تونس.

حل المسابقة

العدد المزدوج ٣٩١ - ٣٩٢

المحرم - صفر ١٤٣٠هـ

١- صام اليهود عاشوراء لأنه يوم نجّى فيه الله بني إسرائيل من فرعون وقومه، فصامه نبي الله موسى عليه السلام.

٢- تسمَّى مدينة غزة بغزة هاشم لوجود قبر هاشم بن عبد مناف الجد الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم فيها.

٣- من أسماء القدس عبر التاريخ: مدينة الأنهار، مدينة الوديان، نور السلام، نور الغسق، يارة، القدس، بيت المقدس.

CUT IT OUT

أسئلة مسابقة

العدد المزدوج ٣٩٧ - ٣٩٨

رجب - شعبان ١٤٣٠هـ

(١) سورة في القرآن الكريم فيها بسملتان، ما هي؟ ....

....

....

(٢) من هو والت ديزني؟

....

(٣) ما وظيفة الطحال في جسم الإنسان؟..................

....

الاسم: .... المدينة: .... ص.ب: .... هاتف: ....

العنوان: .... الدولة: .... الرمز البريدي: .... ناسوخ: ....

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ......)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة ثالثة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات الإخوة القراء المتابعين للمسابقة تمت زيادة قيمة الجوائز، بعد أن سبق مضاعفتها من قبل.

فقد تم رفع قيمة الجائزة الأولى من ١٠٠٠ ريال إلى ١٥٠٠ريال، والجائزة الثانية من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ ريال، والجائزة الثالثة من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ ريال، والجائزة الرابعة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ريال، والجائزة الخامسة من ٢٥٠ ريالاً إلى ٣٥٠ ريالاً، والجائزة السادسة من ١٥٠ ريالاً إلى ٢٥٠ ريالاً. وتظل الجائزتان السابعة والثامنة على ما كانتا عليه.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.

والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

تنويه

نفيد الإخوة المتسابقين أن المجلة ستراعي ما حدث من تأخر في مواعيد صدور الأعداد الأخيرة لظروف فنية خارجة عن الإرادة، ولهذا فقد تم مدّ فترة تلقي المشاركات في المسابقات شهرين بدلاً من ٤٥ يومًا.



قسيمة اشتراك أفراد (مخفضة)

الاسم: ....

العنوان: ....

المدينة: ....

الدولة: ....

ص.ب: .... الرمز البريدي: .... هاتف: .... ناسوخ: ....

- قيمة الاشتراك السنوي لـ (١٢ عددًا) ١٠٠ ريال سعودي أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.
- ترسل قيمة الاشتراك بشيك مصدق لأمر مجلة الفيصل الثقافية، أو يتم توريدها في حسابنا رقم (٠٠١ ـ ٠٥٥٥٠٥ ـ ٠٠٤) في البنك السعودي البريطاني، شارع العليا العام ـ الرياض.
- يشترط إرفاق القسيمة مع طلب الاشتراك.

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية ـ هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥/ ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١



ما زال الإنسان ينظر بحيرة إلى ماضيه

من خلق الله دابةً (حيوانات) يتوجّب عليهم المرور بهذا المسار التخلُّقي، وصولاً إلى الاكتمال الخلقي، إلا الإنسان؛ فالإنسان لا يكفي لوصوله مرحلة يكون بعدها مُكتمل الخِلقة أن يقتصر مسار تخلُّقه على هذه المفردات التي تتكفّل وحدها بجعل غيره من الدوابّ تصل إلى مرحلة الاكتمال الخلقي. إن مفردات التخلّق البيولوجي هذه كافية تماماً لجعل الحيوانات كلها حيوانات كما نعرفها إلا الإنسان. وهذا هو الدليل القرآني المعجز على وجود «مداخلات» على مسار تخلُّق الإنسان؛ هذه المداخلات التي سبق لنا أن رأينا العلم التجريبي المعاصر يتوصَّل إلى وجوب الإقرار بحدوثها ما دام «الأصل الحيواني» للإنسان – كما حدَّده العلم النظري المعاصر – غير كافٍ لتعليل كثير من مفردات الظاهرة الإنسانية.

إذا كان الإنسان حيواناً؛ بمعنى أن ماضيه كان حيوانياً، فإن هذا لا يعني أنه الآن، من بعد رحلة طويلة تطوراً وارتقاءً، حيوان منتمٍ إلى عالم الحيوان انتماء «باقي الحيوانات» إليه

فلو لم تحدث هذه «المداخلات» لما كان الإنسان إنساناً كما نعرفه؛ فهذه المداخلات حقيقة تجريبية لا شك في حدوثها ما دام العلم النظري المعاصر عاجزاً عن تأويل ما يحدث في هذه الظاهرة الغامضة من خرْقٍ بيِّن لبنيته المعرفية وفقاً للأصل الذي يزعم أنه وحده أصل الإنسان. ولكن ما الذي حدث فجعل من الإنسان خلقاً آخر لا علاقة له بباقي خلّق الله من الدوابّ؟ لنتدبّر الآيتين الكريمتين الآتيتين: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨-٢٩). إن «نفخ الله في آدم من روحه»، و«الإنشاء خلقاً آخر»، وجهان لحقيقة واحدة. فحواها أن الله قد «تدخّل بصورة مباشرة» في مسار تخلُّق الإنسان؛ استكمالاً لباقي مفردات هذا التخلُّق؛ تلك المفردات المماثلة لمفردات تخلُّق باقي من خلق الله من حيوانات. وقبل أن نبدأ في السؤال حول ما يعنيه هذا الاستكمال لخِلْقة الإنسان؛ نفخاً فيه من روح الله، وتدخُّلاً مباشراً في مسار تخلُّقه من لدنه تعالى؛ لابد لنا من تأكيد هذا التطابق المُبين بين القرآن العظيم والعلم التجريبي المعاصر. وذلك على قدر تعلُّق الأمر بمسار تخلُّق الإنسان ونشوئه كما نعرفه. فإذا كان هذا العلم الحق قد ألزمنا وجوب القول بوجود «أصول أخرى» للظاهرة الإنسانية، إضافةً إلى أصلها الحيواني كما حدّده



العلم النظري المعاصر: فإن القرآن العظيم قد أرانا مرحلة في تخلُّق الإنسان استدعت وجود التدخُّل الإلهي المباشر؛ إنشاءً له خلْقاً آخر بنفْخ الله فيه من روحه.

والآن ماذا بشأن هذه «الروح» التي نفخ الله في آدم: الإنسان الذي تحدثت عنه الآيات الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

إننا لو تدبَّرنا القرآن العظيم لما وجدنا فيه إشارة واحدة تُحدِّد بموجبها الوظيفة التي ألزم هذه الروح القيام بها اعتقادُ الناس الشائع عنها. لقد وقر في أذهان كثيرين أن وجود الروح الإنسانية في جسم الإنسان هو المسؤول عن حياة هذا الجسم، فليس بمقدور الإنسان - وفقاً لهذا الزعم الواهم - أن يبقى على قيد الحياة لحظةً واحدةً بمفارقة الروح جسده. إلا أن القرآن العظيم واضح كل الوضوح في هذا الخصوص؛ فلم يَرِدْ في هذا القرآن ما يؤيّد قول المؤمنين بعجْز الجسم الإنساني عن الحياة من دون تسبُّب الروح الإنسانية. إن الدور الذي كُلِّفته هذه الروح؛ لتقوم بتأديته بوجودها في الجسم الإنساني، لا يمكن على الإطلاق أن يكون هذا الذي يتوهّمه كثيرون مادام لم يَرِدْ في القرآن العظيم أيّ تحديد لماهية هذا الدور بأنه هذا أو ذاك على وجه التعيين، ومادام كان جسم الإنسان حياً - بشهادة هذا القرآن - دونما وساطة روحية. لنتدبّر الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤). ألا يتجلّى بطلان الزعم بمسؤولية روح الإنسان عن حياة جسده واضحاً كل

الصراع سمة للحياة الإنسانية منذ بدايتها



الوضوح بتدبّرنا ما جاء في هذه الآيات الكريمة من تعديد مراحل التخلُّق الإنساني؟ فهل النطفة شيء حيّ أو ميت؟ وماذا تكون العلقة إن لم تكن مادة حية؟! وهل يُعقل أن تكون المضغة إلا حية؟ وماذا تكون العظام إن لم تكن مادة حية؟!. إن الإنسان في أيّ من مراحل تخلُّقه هذه حيّ، وذلك من قبل أن يُصار إلى إنشائه خلقاً آخر بتدخُّل الله مباشرةً لنفْخ الروح فيه، فكيف - إذاً - تكون الروح هي السبب في حياة الجسم الإنساني إذا كان هذا الجسم حياً من قبل أن تُنفخ فيه؟! لقد بالغ القوم في تحميل الروح ما ليس لها من أن تُحمَّله؛ فالروح نفخها الله في الإنسان لتقوم بتأدية دور لم يَرِدْ في القرآن العظيم ما يجعل منه محدَّداً بهذا أو ذاك من الواجبات؛ حتى يقوم القوم بجعلها مسؤولة عن حياة الجسم الإنساني؛ هذا الجسم الذي شهد له هذا القرآن بأنه حيّ من قبل أن يقوم الله بالنفخ فيه من روحه. قد يبدو هذا الذي تجلّى لنا غريباً بعض الشيء؛ فكيف نفهم - إذاً - السبب في وجود الروح في جسم الإنسان؟! وكيف يحدث الموت إن لم يكن بمفارقة الروح الجسد؟! يبدو أننا مُولعون بالتفسير والتأويل، وإن كان في هذا تجاوزٌ للحدود المعرفية التي خلقها الله، وجعلها حواجز يتعذّر على مَن خلق بشراً أن يكون بمقدورهم تخطّيها إلا من رحم ربي، فلماذا لا نُقرّ بأننا لم نُؤتَ من العلم إلا قليلاً فنريح ونستريح؟! لقد نبّه القرآن العظيم الإنسان إلى وجوب ألاّ ينسى هذه الحقيقة، وذلك بتأكيده أن هذه الروح هي من أمر الله؛ هذا الشأن الإلهي الغامض الذي ليس لنا إلا أن نقف حياله موقنين بعجزنا المطلق عن أن يكون بوسعنا إزالة غموضه الذي لا وجود له إلا به. لنتذكّر الآية الكريمة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥). فالروح هي (من أمر ربي)، وهذا ما سبق لنا أن وقعنا عليه بتدبُّرنا ما قال به القرآن العظيم من نفْخ إلهيّ للروح في آدم: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧١-٧٢). فالروح هي (من أمر ربي)، فلا قدرة لنا على أن نعلم عنها شيئاً مادام الله قد شاء أن يجعل منها أمراً خاصاً به بشهادة كونها من روحه (من روحي). ألا يتوجب علينا - إذاً - أن نكفّ عن تجاوز الحدود التي أوجب الله علينا ضرورة عدم تعدّيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

لقد أزاح القرآن العظيم من أمام أعيننا جبالاً زائفة من الكتب التي وثّقت هذا الاعتقاد الإنساني بمسؤولية الروح الإنسانية عن حياة جسم الإنسان؛ فالإنسان - منذ بدايات التفكير الإنساني أساطير وخرافات - اعتقد بوجود «كيان آخر» مُخالط لجسمه توهّم أن مفارقته هذا الجسم هي السبب في حلول الموت فيه؛ لذا فلم يكن أمام الإنسان إلا أن يطابق بين هذا «الكيان غير المنظور» وما جاءت به الوثائق الإلهية من ذكْر لوجود «شيء آخر» غير منظور قام الله بنفخه فيه من روحه. وهكذا نشأ هذا الاعتقاد بمسؤولية الروح عن حياة الجسم الإنساني: فهذا الاعتقاد لا يمتّ إلى الحقيقة الدينية بصلة حقيقية، وذلك مادامت نشأته تضرب بجذورها عميقاً في الزمان وصولاً إلى ماضٍ سحيق كان الإنسان فيه عاجزاً عن التأويل الصائب لما يحدث أمامه عجْزه اليوم عن تفسير ما يحدث في ظواهر الوجود بعيداً من خرافات ذلك الماضي وأساطيره!. ولكنه العقل الإنساني العاجز عن الإقرار بأنه غير قادر وحده على التوغُّل بعيداً من عالم الحقيقة دونما عون خارجي من عالَم الحقيقة هذا: هذا العالم الذي يفاخر الإنسان بازوراره عنه مادام كان في هذا الازورار تأكيد لعبوديته لغير الله إلهه الحق؛ لذا فلا عجب إن كان هذا العجز يتجلى تطاولاً على الحقيقة وافتراءً يطولان من الوجود خفاياه التي توهّم الإنسان أنه غير عاجز عن البحث فيها، وبما يجعلها تتنازل عن تخفّيها، فتتجلى واضحةً وضوح ما كان ظاهراً من ظواهرها. وإلا فكيف تجاسر الإنسان على الروح فحمّلها ما لم يَرِدْ بشأنه شيء فيما أنزل الله من كتاب؟! لقد قام الإنسان بالتجاسر على الظاهرة الإلهية: إشراكاً وتثنيةً وتثليثاً، على الرغم من أن الله هو الأكثر استخفاءً في هذا الوجود. لذا، فلم العجب إن قام الإنسان بتفسير وجود الروح في جسمه وفقاً لما يُمليه عليه عقله من وجوب قيامه

العلم النظري المعاصر يقف عاجزاً حيال معظم المفردات الإنسانية التي بالإمكان الوقوع عليها ملاحظةً وتجريباً، وهذا العجز كائن في صُلب بنيته المعرفية



الداروينية والإيمان.. هل من علاقة؟

بعقلنة الأشياء حتى ما كان منها (من أمر ربي)؟! على أي حال، فإن القرآن العظيم قد خلّصنا من أوهام كثيرة جداً، وعلى رأس هذه الأوهام الاعتقاد بمسؤولية الروح عن حياة الجسم الإنساني؛ هذا الجسم الذي خلقه الله حياً من قبل أن يقوم بإنشائه خلقاً آخر بالنفخ فيه من روحه؛ فالقرآن العظيم قد بيّن الأمر بكل وضوح، وذلك بتأكيده أن الماء هو «مادة خلق» كل شيء حي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠). فالحياة، إذ أنشأها الله من الماء، لا تحتاج إلى الروح سبباً ليحول بين وجودها الحي هذا والعدم. لقد جعل الله من الماء كل شيء حي، ومن ضمن ذلك الإنسان؛ لذا فليس هنالك من داعٍ لاستقدام الروح للتسبّب بوساطة منها في حياته؛ فالماء قد كفّله الله ذلك عندما عزا خلقه كل شيء إلى مادته فحسب. إذاً، لا حاجة هنالك إلى استدعاء الروح سبباً لنشأة الحياة؛ فالماء يكفي وحده من دون أيّ عون من الروح. أما إن عزّ علينا أن يكون للروح وجود لا نفقه له دوراً فما علينا إلا أن نتدبّر ملياً ما حوته الآية الكريمة من حكمة بالغة وفصل خطاب: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥). والآن، من بعد أن تبيّن لنا ما في وسع هذا القرآن القيام به من إنارة معرفية للوجود، بمقدورها أن تجعلنا ننظر إلى ظواهره بعين الإيمان بالله لنرى الحق لا الباطل، لنعُدْ إلى الظاهرة الإنسانية في تخلّقها من «أصول كثيرة» لم يقع العلم النظري المعاصر إلا على واحد منها فحسب، وذلك عندما أرجع النشأة الإنسانية إلى مجرد ماضٍ حيواني ليس إلا، فماذا قال - بعدُ - القرآن العظيم غير الإنشاء خلْقاً آخر تأكيداً لهذه الأصول الخلقية المتعددة؟ لنتدبّر الآيات الكريمة الآتية: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٥-٣٦).

يتبيّن لنا بتدبّرنا ما ورد في هذه الآيات الكريمة أن الأكل من الشجرة عاد على الإنسان بما حتّم عليه وجود المعاناة من آثار كارثية نجمت من جرّاء أكله منها. إذاً، فالأكل من الشجرة «أصل آخر» شارك في صياغة الظاهرة الإنسانية بصيغتها التي نعرفها مُلازمةً من قبل مشكلة يُعانيها الإنسان وجوباً مادام إنساناً. وهذا «الأصل الآخر» هو السبب الوحيد في نشوء هذه المشكلة وتفاقمها؛ جنوناً وخبالات. لم يتسنَّ لغير هذا الإنسان أن يعانيها شديد العناء هذا: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

الإنسان يعجز عن تصديق الأصل الحيواني المزعوم لإيقانه استحالة نجاحه في المطابقة بين واقعه المرير هذا والواقع الحيواني

لقد تعرّفنا بهذا التجوال الذي قمنا به طوافاً حول قرآن الله الكريم جوانب من إعجازه المعرفي المُبين: هذا الإعجاز الذي يتعالى على الزمان؛ لفرط انتسابه إلى عالَم الحقيقة المُفارق للواقع تعالياً عليه مادام هذا الواقع عاجزاً عن استيعاب نوره إلا بوساطة من حجاب الأسباب: هذه الأسباب التي جعلها الله أوتاد



الأصول المتعددة لتكامل الخلقة الإنسانية مفتاح الحلّ

الوجود، فلا يزول إلا بزوالها بتجلّي الله مباشرةً من بعد تلاشي هذا الحجاب. ولقد تبيّن لنا أن القرآن العظيم وحده يملك مفتاح الحل للمشكلة الإنسانية تحديداً للسبب الوحيد في نشأتها بتحديد «الأصول المتعددة» لتكامل الخِلْقة الإنسانية؛ تبياناً لما هو ذو صلة بهذه النشأة وما لا علاقة له بها؛ فالإنسان «ظاهرة غامضة» لا قدرة لغير هذا القرآن على جعل هذا الغموض الملازم لها يتلاشى إذا - وإذا فقط - استنار المرء بهدي إعجازه المعرفي المُبين. إلا أن هذا لا يعني أبداً ألاّ يكون لما هو صائب من إبداع عقل هذا الإنسان نصيب في تحديد الوجهة التي يتوجّب علينا اتخاذها ونحن نتدارس الظاهرة الإنسانية بنور هذا القرآن، فلا يمكن - أبداً - أن نطرح جانباً كل ما هو صحيح مما جاءنا به داروين الذي تأتّى له أن يتوصّل إليه بسبب من دقيق ملاحظته وشديد حرصه على توثيق هذه الملاحظات، وبالشكل الذي يسّر له لاحقاً أن يصل - دونما وعي منه - إلى استكناه السُّنة الإلهية التي بموجبها سارت عملية صيرورة الإنسان منذ البدايات حتى النهاية كما هو متاح لنا نحن البشر أن نعرفه.

لذلك، فإن القول الفصل في هذا الأمر، ذي الصلة بالظهور المعجز للإنسان على هذا الكوكب، له أن يستند إلى القرآن العظيم، وأن يفيد - في الوقت ذاته - من كل حقّ يُسِّر لداروين أن يتبيّنه وهو يجول ببصره متدبّراً الحياة، باحثاً - دونما قصد منه - عن آثار سنة الله في خلقه كما تتجلى واضحةً في ظواهرها؛ بسيطةً كانت أم معقدة.

وهذا ما يوجب علينا ضرورة أن نعمل جاهدين على تأسيس مشروع معرفي يأخذ بكل هذا الذي تبدّى لنا آنفاً، ساعياً إلى تقديم نموذج جيد للتكامل الحضاري الواجب أن يُصار إلى إرساء قواعده بين الشرق والغرب في زماننا العولمي هذا. ولعل هذا النموذج الجديد أن يمهّد السبيل لـ«تكاملات حضارية» أخرى بوسعها أن تقدم البرهان الجليّ على أن الشرق والغرب من الممكن لهما أن يلتقيا التقاء من يحدوه الأمل في عالم من الأخوة الحقة البعيدة البُعد كله عن استعمار الغرب وخضوع الشرق. وهذا النموذج الحضاري الجديد، الذي تأتّى لنا الاطلاع على ملخص وجيز بأهم خطوطه البحثية، له أن يأخذ من الغرب داروينيته، ومن الشرق عقيدته المؤمنة، فيكون بذلك اسمه «الداروينية المؤمنة».



تحقيق

قلعة دمشق

معلم تاريخي شاهد على الانتصارات

محمود زين العابدين

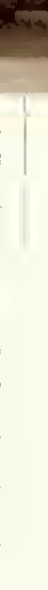
حلب - سورية





تعدّ عمارة القلاع أحد أهم أشكال العمائر العسكرية ذات التحصينات الدفاعية، والارتفاع الشاهق؛ لتكون مطلةً على أسوار المدينة الخارجية. بيد أن قلعة دمشق تتميز بأنها قد شيدت على أرض منبسطة من مركز المدينة القديمة، وضمن نسيجها العمراني. وتقع القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة، وتمتد من باب الفرج (المعروف حالياً بباب المناخلية) في السور الشمالي حتى باب النصر (الذي أزيل في عهد السلطان عبد الحميد) في السور الغربي. وفي عهود متأخرة، ومع التوسّع العمراني للمدينة، باتت القلعة محاطةً بمجموعة من الأسواق؛ من الجهة الغربية يحيطها سوق الخجا، ومن الجهة الجنوبية سوق الحميدية، ومن الجهة الشرقية سوق العصرونية، ومن الجهة الشمالية سوق السروجية. وقد شهدت القلعة كثيراً من أعمال التعديلات والترميم في حقب زمنية مختلفة، ولا تزال أعمال التنقيبات والترميم مستمرةً إلى يومنا هذا بإشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف.

القلعة من الخارج يبدو عليها الطابع العسكري



تاريخ القلعة

لم يذكر التاريخ شيئاً عن وجود القلعة في الزمن الروماني، وأخبار الفتوحات العربية لم تمدّنا بالخبر اليقين عن وجودها، بل أشارت إلى أبواب المدينة وأسوارها فقط، وأن خالد بن الوليد حاصر دمشق، وتسلّق سورها الشرقي ثم دخلها. والباحثون الأثريون، أمثال جان سوفاجيه وغيره، الذين وضعوا مخططاً لمدينة دمشق في العصر الروماني؛ لم يثبتوا عليه أيّ أثر لحصن أو قلعة في الزاوية الشمالية الغربية لسور المدينة حيث موقع القلعة اليوم[1].

أنشئت قلعة دمشق في عصر الملك العادل أبي بكر محمد ابن أيوب؛ شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي وخليفته. وقد أقامها مكان قلعة سلجوقية أنشئت عام ٤٦٩هـ(١٠٧٦م)، وكانت قلعة مهمة استفاد منها نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي في حماية دمشق من تهديد الصليبيين عام ٥٤٢هـ(١١٤٨م)، ودعم منعة الحكم وسياسة البلاد[2]. ولهذا تنقسم القلعة بمكوناتها الحالية إلى حقبتين رئيستين:

- القلعة السلجوقية والتحصينات النورية والزنكية (١٠٧٦-١١٩٣م): وقد أسّسها السلاجقة داراً للإمارة مع خندق محيط بها، ثم أعقبتها تحصينات النصف الثاني من القرن الثاني عشر في عهد السلطانين نور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي؛ استعداداً لرد الحملات الصليبية إبان تلك الحقبة.

- القلعة الأيوبية (١٢٠٢-١٢٥٩م): عندما استقر حكم الدولة الأيوبية للملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب قام بتشييد القلعة الأيوبية (١٢٠٢-١٢١٧م) المؤلفة من اثني

عشر برجاً، وبدنات حصينة تصل بينها، إضافةً إلى بعض المباني المدنية المهمة[3]. وقد أطلق القدماء اسم (البدنة) على قطعة السور الواقعة بين برجين، وتشكّل البدنات سور القلعة، ويـراوح سمكها بين (٣,٩ أمتـار، و٤,٩٠ أمتـار)، كما يبلغ ارتفاعها نحو (١١,٥) متراً، وقد فُتحت فيها مجموعة من مرامي السهام موزّعة على طبقتين. وتنتهي الأسوار في الأعلى بستارة من الشرافات ذات مرام صغيرة[4]. وأسلوب بناء أسوار القلعة والأبراج مماثل للأسلوب المتّبع في بناء أسوار مدينة دمشق وأبراجها. وكل التحصينات مبنية بالمداميك الحجرية المنتظمة الشكل، وقد بُنيت المداميك بطريقة الرصف بعضها فوق بعض حيث تربطها مونة (كحلة) تشبه الأسمنت[5].

كانت القلعة منذ بداية إنشائها حصناً عسكرياً مهماً، وكانت مقراً للسلاطين الأيوبيين، وفيها تُمارس جميع الأنشطة السياسية والاجتماعية، فكانت مدينة محصّنة فيها القصور والحمامات والمساجد، وفيها دفن عدد من الملوك، ثم نقل رفاتهم إلى خارج القلعة. وفي العصر المملوكي (٦٥٩-٩٢٢هـ/ ١٢٦٠-١٥١٦م) أصبحت القلعة مقراً لنواب السلطنة؛ إذ أصبحت القاهرة هي العاصمة، وكان الملوك المماليك يقيمون فيها عند قدومهم إلى دمشق. ثم صار للقلعة نائب خاص مستقل عن نائب السلطنة. أما في العصر العثماني، فأصبحت القلعة مقراً للإنكشارية والدالية، ويرأسها آغا القلعة، ومهمته استقبال الوالي وتوديعه. وقد استخدمت القلعة سجناً ومعقلاً، وكانت مجالاً للفتن والاختلافات، ثم أصبحت المقر الوحيد للحامية العسكرية[6]. ويشير عبدالعزيز العظمة في كتابه (مرآة الشام) إلى أن العرب عندما حاصروا مدينة دمشق لم تكن لها قلعة خاصة، بل كانت المدينة كلها ذات سور منيع يحيط بها من جهاتها الأربـع[7]. وفي العصر العثماني انتهى الدور الحربي للقلعة والأسوار، فرُدمت الخنادق، وتحوّلت القلعة إلى ثكنة عسكرية، وأحيطت أسوارها بالأسواق، كما حُجبت أسوار المدينة وهدم بعضها، وعلتها الدور والمنشآت الطفيلية[8].

الوصف المعماري

تبلغ مساحة القلعة ٣٣١٧٦ م٢، وهي ذات شكل مستطيل ذي أضلاع غير مستقيمة، ويبلغ طولها ٢٤٠-٢٥٠م، وعرضها ١٢٠-١٦٥م. ويحيطها من الخارج سور منيع ذو أبراج مربعة ضخمة، يبلغ عددها ١٢ برجاً. وتعلو الأسـوار رواشن من



الحجر النحيت، وينفتح في جسم أسوار القلعة أربعة أبواب: الباب الحديث في الشمال، وأمامه جسر، والباب الشرقي، وهو المدخل الرئيس، وبابان للسر ذوا جسور متحركة فوق الخندق في الغرب والجنوب. ويحيط بالقلعة خندق تمّ توسيعه في المدة من ٦١٢-٦١٤هـ (١٢١٤-١٢١٦م)، وهو بعرض ٢٠ متراً، وقد يصل إلى ٥ أمتار. وقد رُدم الخندق إلا من الجهة الشمالية حيث أصبح مجرى لنهر العقرباني[٩].

ومن أهم منشآت القلعة وعناصرها الدفاعية: الأبراج، والبدنات بينها، والممرات الدفاعية، والمرامي، والرواشن، والسقاطات، والشراشيف، والخندق، والجسور المتحرّكة.

أما أهم المنشآت المدنية التي لا تزال حتى الآن، فهي جامع أبي الدرداء، وهو قاعة واسعة تتّصل بالبرج الشمالي المتوسط،



صورتان توضّحان بعض مكونات القلعة الصامدة حتى اليوم

وإلى جانبها إيوانان صغيران. ويعلو القاعة قبة، وفي الحرم ضريح يُنسب إلى الصحابي أبي الدرداء. أما القصر، فهو بناء كبير يمتد خلف الممر الدفاعي الجنوبي بطول ٨٠ متراً، ومن ستة أواوين في كل طابق[١٠].

تتجلى قوة القلعة الدفاعية، إضافةً إلى قوة أسوارها السميكة، وأبراجها العالية، في قوتها الضاربة المتمثّلة في العناصر الثلاثة الآتية:

- مرامي النبال الموزّعة في أسوار القلعة وأبراجها بطبقاتها الثلاث، ويزيد عددها على ثلاثمئة مرمى.
- الرواشن: وهي شرفات بارزة في أعالي الأبراج، وظيفتها صبّ الزيوت المحرقة والمواد الفتاكة من فتحاتها على العدو المهاجم في حالة تمكّنه من الإفلات من الأسوار.
- آلات الحرب الثقيلة المنصوبة على أسطح الأبراج خلف المتاريس؛ كالمنجنيقات التي تقذف القنابل الحجرية وقنابل النفط المحروقة[١١].

أهم المكتشفات الأثرية في قلعة دمشق بين عامي ١٩٩٢ و٢٠٠٦م

قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف منذ تسلّم مسؤولية إحياء موقع قلعة دمشق بكثير من الأعمال الأثرية التي أدّت إلى اكتشافات مهمة أسهمت في تعرّف عدد من المعطيات التاريخية والمعمارية والأثرية المهمة بشكل دقيق وشامل، أهمها:

- القاعة الأيوبية المناظرة لقاعة العرش المكتشفة في أثناء تنقيبات البعثة الوطنية عام ١٩٩٢م.
- الحمام المملوكي المكتشف في أثناء تنقيبات البعثة الوطنية عام ١٩٩٥م.
- البوابات الجانبية العائدة إلى القلعة الأيوبية (١٢٠٢-١٢١٧م) التي كشفت عنها تنقيبات البعثة الوطنية بين عامي ١٩٩٧ و٢٠٠٢م.
- الخوذ المملوكية التي اكتشفتها في البرج الرابع البعثة الوطنية عام ٢٠٠١م.
- البقايا المدفنية العظمية التي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وكشفت عنها البعثة الإسعافية السورية الفرنسية عام ٢٠٠٢م.
- المكتشفات العسكرية ضمن المبنى الجنوبي الغربي، وعثرت عليها البعثة الوطنية بالتعاون العلمي مع البعثة السورية الفرنسية عام ٢٠٠٢م.
- بقايا عناصر معمارية: مثل البدنة الأيوبية، والعناصر السلجوقية، وبقايا من اللبن، ربما تعود إلى حصن القرن العاشر، وعثرت عليها البعثة الوطنية عام ٢٠٠٣م.
- باب السر الغربي الذي يعود إلى القرن الثالث عشر، وكشفت عنها البعثة الوطنية عام ٢٠٠٥م.
- جسر الخندق للبوابة الشرقية في آخر مراحله العائدة إلى القرن السادس عشر، وكشفت عنه البعثة الوطنية عام ٢٠٠٦م[١٢].

الأعمال الترميمية للقلعة

شهدت قلعة دمشق عدداً من أعمال الترميم وفق الأسس والمعايير الدولية؛ لتسهم تلك الأعمال في إعادة الروح إلى القلعة، وجعلها أحد أهم المعالم الأثرية في مدينة دمشق. وقد جرت تلك الأعمال بين عامي ١٩٧٠ و٢٠٠٦م، ومن أهم تلك الأعمال:

- إعادة بناء القبوات المتصالبة للبدنة الجنوبية المملوكية في السبعينيات من القرن العشرين.
- إعادة بناء برج الزاوية الجنوبية الغربية وبعض أجزاء من البدنات المفقودة في الجهتين الغربية والشمالية بين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٨م.
- أعمال إزالة الإشغالات الحديثة عن الواجهات الخارجية للقلعة وأبراجها؛ مثل: سوق الخجا عام ١٩٨٤م، ومباني السجن الإضافية بين عامي ١٩٨٩ و٢٠٠٣م.
- أعمال ترميم البدنة السلجوقية الجنوبية عام ١٩٩٦م.
- أعمال كشف أسطح المباني وعزلها بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٦م؛ كتلك المُنفّذة على سطح المبنى الجنوبي الغربي، وسطح

البدنات الشمالية الداخلية والغربية والجنوبية، والأبراج.

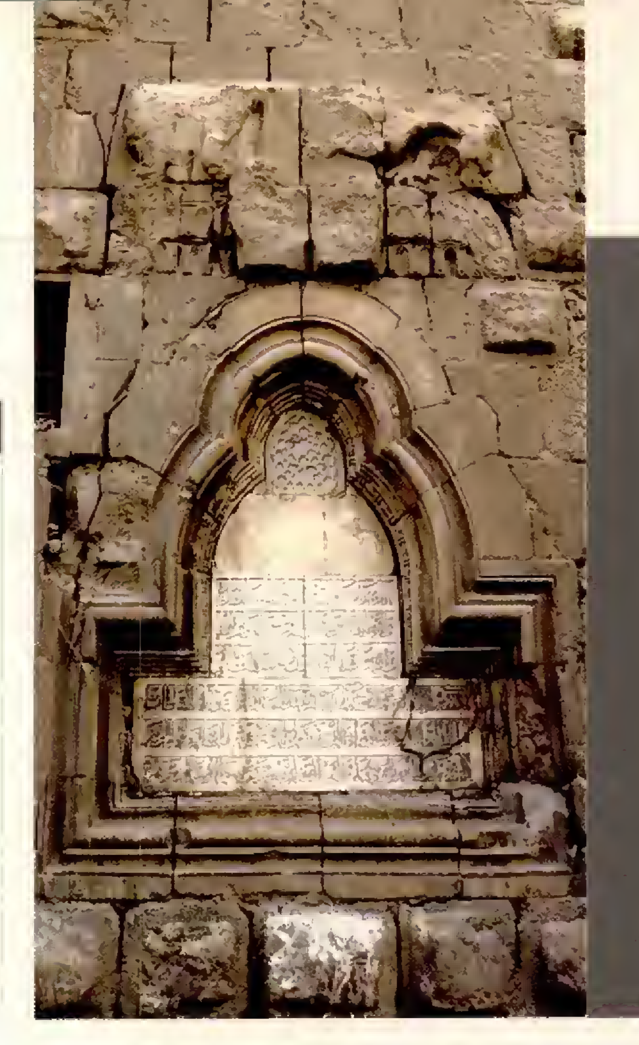
- أعمال كشف الممرّ الفاصل بين القلعة ومحالّ سوق الحميدية عام ٢٠٠١م.
- أعمال تأهيل محاور الحركة الداخلية ضمن البدنات والأبراج بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦م. التي طالت الجهات الغربية والجنوبية والشرقية.
- أعمال ترميم تدعيمية وأخرى تأهيلية لخدمة الوظائف الجديدة المسندة إلى الفراغات المعمارية؛ كتلك المُنفّذة ضمن الأبراج وبدنات الجهة الغربية والجنوبية والشرقية بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٦م.
- أعمال ترميم مرامي البرج الثاني وفتحات المبن ى الجنوبي الغربي عام ٢٠٠٥م.
- أعمال إعادة تأهيل الساحة الداخلية للقلعة وإظهارها بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٦م[١٣].

كلمة أخيرة

مما لاشك فيه أن عملية ترميم القلعة ليس بالأمر اليسير، بل يحتاج إلى مزيد من الوقت والدعم؛ لضخامة تلك القلعة، وثراء عمارتها العسكرية. وقد قام الرئيس السوري بشار الأسد في الأول من يولي/و تموز من عام ٢٠٠٦م بافتتاح القلعة بعد التنقيبات الأثرية والترميمات التي شملت بناء برج الزاوية الجنوبية الغربية، وبعض

القلعة بحاجة إلى ترميم مستمر لتظل تستغل سياحياً وثقافياً





لمسات إسلامية تزين جدران القلعة

أجزاء من البدنات المفقودة في الجهتين الغربية والشمالية وواجهات القلعة، وإزالة الإشغالات الحديثة عن الواجهات الخارجية، وإعادة تنظيم الساحة. ولا تزال أعمال التنقيبات والترميمات مستمرةً في القلعة، إضافةً إلى الاستفادة من القلعة في بعض المناسبات الثقافية والفنية: فمع احتفالية دمشق عاصمةً للثقافة العربية هذا العام ٢٠٠٨م، نظّمت الأمانة العامة للاحتفالية عدداً من الحفلات الغنائية الرائعة، علماً أن الاستفادة من هذا الصرح المعماري الضخم بتلك النوعية من الأنشطة الثقافية والفنية يسهم في جذب الزوار إلى القلعة، وتعرّف أقسامها وعناصرها المعمارية الثرية، فتتحقق عملية التوظيف الثقافي لهذا المبنى الأثري، وإعادة الحياة إلى تلك القلعة التي كانت شاهداً على كثير من الانتصارات والأحداث التي شهدتها مدينة دمشق الفيحاء.

المراجع

١- ساطع أكرم، القلاع والحصون في سورية، دار دمشق ومكتبة أطلس، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٥م، ص٢٦.

٢- البهنسي، عفيف، سورية التاريخ والحضارة، منطقة دمشق وريفها، وزارة السياحة، تموز ٢٠٠١م، دمشق، سورية، ص١١٥-١١٧.

٣- قلعة دمشق، المرحلة الأولى لترميم قلعة دمشق، ٢٠٠٦م، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ص٥-٧.

٤- الريحاوي، عبدالقادر، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية - المعماري والفني، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٣٢٢.

٥- الخضر، عبدالمعطي، تاريخ العمارة - العمارة في العصور الوسطى، العمارة الإسلامية والأوربية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٠٣.

٦- البهنسي، عفيف، سورية التاريخ والحضارة، منطقة دمشق وريفها، وزارة السياحة، تموز ٢٠٠١م، دمشق، سورية، ص ١٢٠.

٧- العظمة، عبدالعزيز، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ/ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٢م، ص٧٣.

٨- الريحاوي، عبدالقادر، دمشق: تراثها ومعالمها التاريخية، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٨٧.

٩- البهنسي، عفيف، سورية التاريخ والحضارة، منطقة دمشق وريفها، وزارة السياحة، تموز ٢٠٠١م، دمشق، سورية، ص ١١٧-١١٨.

١٠- المرجع السابق، ص ١٢٠.

١١- الريحاوي، عبدالقادر، دمشق: تراثها ومعالمها التاريخية، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٨٩.

١٢- قلعة دمشق، المرحلة الأولى لترميم قلعة دمشق، ٢٠٠٦م، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ص٨-١٠.

١٣- المرجع السابق، ص١٢.



الطمع القاتل:

مستقبل اليهود في فلسطين كما يراه محمد أسد (ليوبولد فايس سابقاً)

حيدر الغدير

الرياض - السعودية

من أمتع السير الذاتية، وأكثرها تشويقاً، كتاب المهتدي النمساوي محمد أسد رحمه الله، الذي روى فيه - من بين ما روى - قصة تحوّله من اليهودية إلى الإسلام، وقد تُرجم الكتاب إلى العربية، وطُبع مرةً باسم «الطريق إلى الإسلام»، ومرةً أخرى باسم «الطريق إلى مكة». والكتاب جدير بأن يُوضع بين أيدي غير المسلمين ممن تُرجى لهم الهداية؛ لأنه عون كبير لهم على الوصول إليها. لقد قرأتُ هذا الكتاب عدة مرات، وفي مراحل مختلفة من حياتي، ومع ذلك لا أزال أجد في قراءته متعة فكرية وأدبية وتاريخية ودعوية. وأتمنى أن ينهض بعض المخرجين بمهمة تحويله إلى فلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني.

وللمرحوم محمد أسد كتاب صغير الحجم اسمه «الإسلام على مفترق الطرق»، وهو كتاب عميق الفكر، دقيق النظر، فيه غَيْرة على الأمة، وتحذير لها من مخاطر التغريب، ولو أن مؤلّفه سمّاه «المسلمون على مفترق الطرق» لكان العنوان أكثر دقةً ودلالةً.

ولقد تمنّيت كثيراً أن تُتاح لي فرصة لقاء المؤلف، ومحاورته، وسؤاله عما جاء في سيرته الذاتية، وعن مستقبل اليهود في فلسطين، وانتظرت حتى يسّر الله - عز وجلّ - لي ذلك على غير سعي مني ولا تدبير، وكل شيء عند الله بمقدار. كان ذلك في عام ١٩٧٩م، حين وصلت إلى طنجة صيفاً في أول زيارة لي للمغرب العزيز، وقد علمتُ أن المرحوم كان مقيماً فيها. ومن خلال استعلامات الهاتف حصلت على رقمه، واتصلت به، فرحّب بي كثيراً، وزارني في الفندق وهو في غاية السرور، وعانقني وهو يبكي؛ إذ وجد من يسأل عنه وهو في بلد غير بلده الأصلي، شيخ عجوز انقطعت جذوره مع ذويه بسبب هجرته وإسلامه، ولا يكاد يعرفه أحد في طنجة، ويعيش مع زوجته في بيت هادئ واسع، مع الذكريات والوحدة وأعباء الشيخوخة، ذلك أنه كان في التاسعة والسبعين من عمره؛ لأنه من مواليد عام ١٩٠٠م، ولأن له ولداً وحيداً اسمه طلال من زوجة أخرى يعيش في بريطانيا.

زُرْتُهُ في البيت، وكانت فرحته لا تُوصف، وسألني كيف تعرّفت إليه، فأجبته. لقد كان كالعصفور بلّله القطر في

يوم صائف، فرح وانتفض، وأخذت الذكريات تتداعى من خلال الأسئلة والأجوبة، وأخذ يريني بعض صوره المحفوظة لديه، أو يشرح لي ظروفها، وكأنه وجد من يفرغ لديه شحنة كبيرة من الخواطر والذكريات والكلام الحبيس، ووجد من يهرب إليه من وحدته ونسيان الناس له. وقد حاولت أن أكون له عوناً حقيقياً في ذلك.

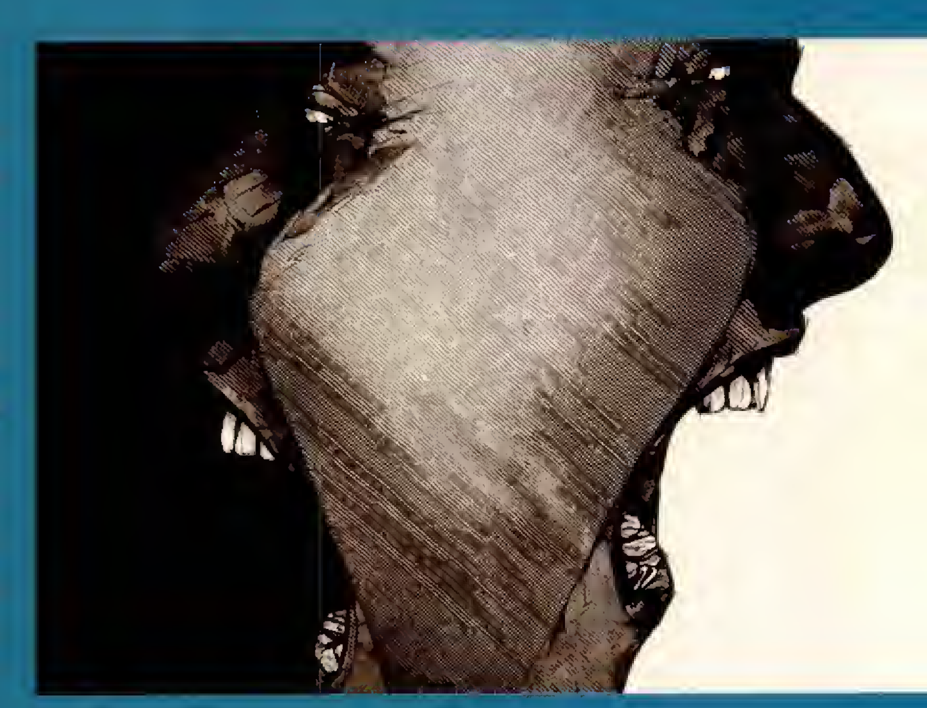
طال الحديث وامتدّ وتنوع، فوجدتُ فيه دليلاً جديداً على ذكاء الرجل، وثقافته، ومعرفته العميقة بالمسلمين؛ ما لهم وما عليهم، وبالغرب؛ ما عليه وما له، فضلاً عن مقدرته البيانية، وحسن إدارته الحوار، حتى إني عجبتُ - ولا أزال - من قلة إنتاجه مع هذه المزايا المهمة، ومع سعة وقته، وعزلته، وعمره الطويل.

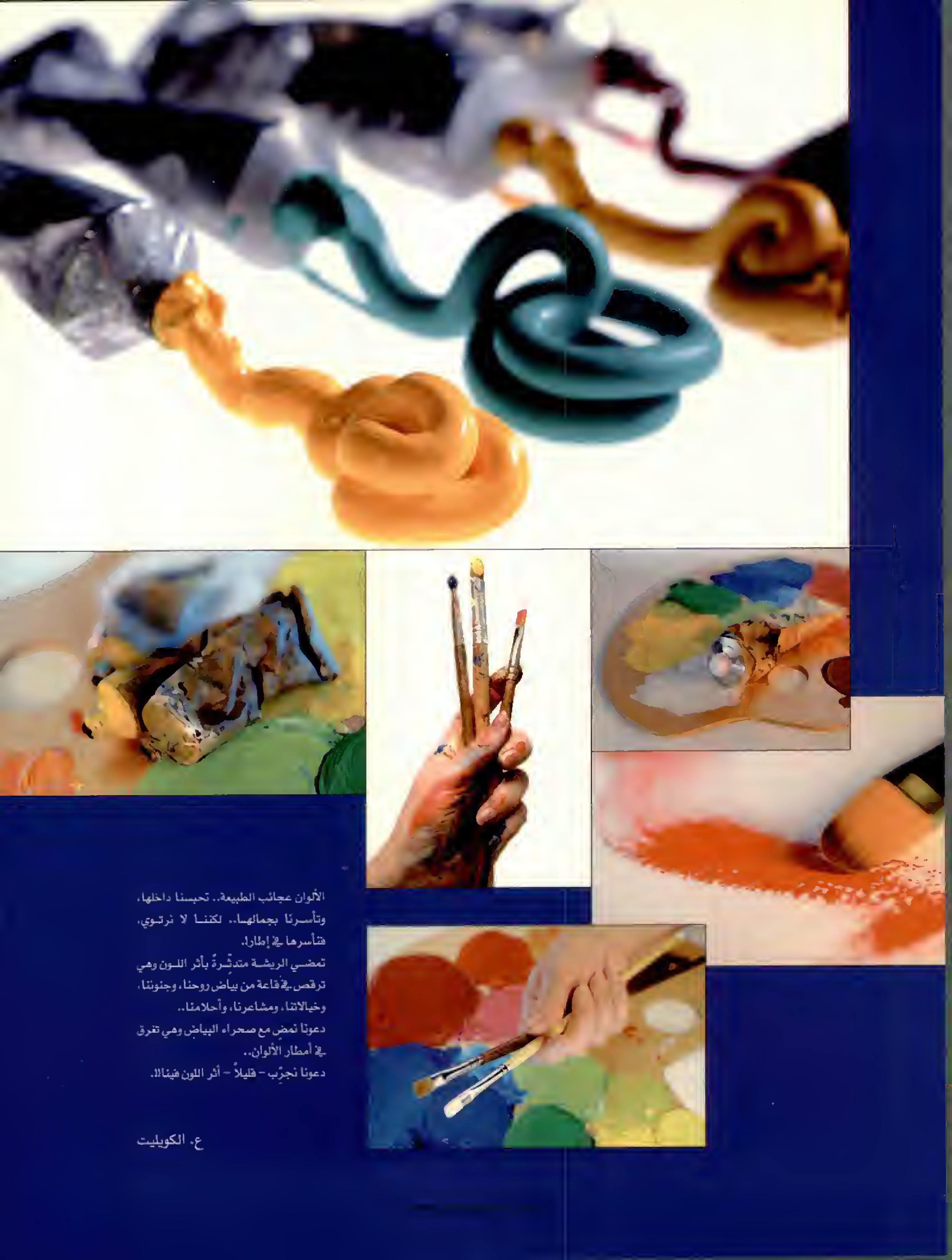
لم أسأله عن ذلك، وليتني فعلتُ، لكنني سألته عن أمر أهم. قلت له: أنت رجل يهوديّ تحوّل إلى الإسلام تحوّلاً صادقاً عميقاً بعد تأمل ومعاناة ومقارنة وترحال: مما يجعلك أقدر منا على التنبّؤ بمستقبل صراعنا مع اليهود في فلسطين، فماذا أنت قائل؟

قال لي: يا بني، اليهود قوم حمقى، لا يتعلّمون من عِبَر التاريخ، ولا يستفيدون من أخطائهم، فيهم الغرور، وفيهم الطمع، وهذا هو المقتل. إنهم يشبهون القرد الذي روى حكايته الحكيم اليوناني «إيسوب» في قصصه التي تشبه قصص «كليلة ودمنة» في أدبنا العربي، وخلاصتها أن رجلاً كان لديه قرد، وذهب خارج بيته لحاجة طرأت له، فسرّ القرد، ذلك أنه رأى جرَّةً فيها جوز، فسارع إليه ليأكله. مدّ يده داخل الجرة، وأمسك بجوزة، وحاول إخراجها، فلم يستطع؛ لأن يده تكوّرت بسبب الجوزة التي قبض عليها، فضاقت عليه فتحة الجرة؛ لذلك لم يكن أمامه بدّ من أن يترك الجوزة لتعود يده إلى وضعها العادي فيستطيع إخراجها من الجرة.

لكن طمعه منعه من ذلك، وظلّ حاله على ما هو عليه؛ يده تمسك بالجوزة داخل الجرة وقد تجمّدت عليها، حتى جاء صاحبه، فضربه، فحلّت به عقوبة مطامعه. قال: وهكذا اليهود في فلسطين؛ إن عقوبة الطمع تنتظرهم، وسوف يتركون فلسطين كارهين، كما ترك القرد الجوزة في الجرّة كارهاً.

لم أنسَ ما قاله لي محمد أسد «ليوبولد فايس سابقاً»، وقارنته بسلوك اليهود قديماً وحديثاً، فازددتُ به اقتناعاً. إن المشروع الصهيوني في فلسطين بلغ ذروته عام ١٩٦٧م، ثم بدأ يتجمّد، ثم بدأ يتآكل، وأمارات نهايته تزداد يوماً بعد يوم، ونحن المسلمين في صعود، وهو في هبوط، والمستقبل لنا بإذن الله، وإن موعدهم الصبح، وإن الصبح لقريب.





الألوان عجائب الطبيعة.. تحبسنا داخلها، وتأسرنا بجمالها.. لكننا لا نرتوي، فنأسرها في إطار!.

تمضي الريشة متدثرةً بأثر اللون وهي ترقص في قاعة من بياض روحنا، وجنوننا، وخيالاتنا، ومشاعرنا، وأحلامنا..

دعونا نمضِ مع صحراء البياض وهي تغرق في أمطار الألوان..

دعونا نجرِّب – قليلاً – أثر اللون فينا!!.

ع. الكويليت





